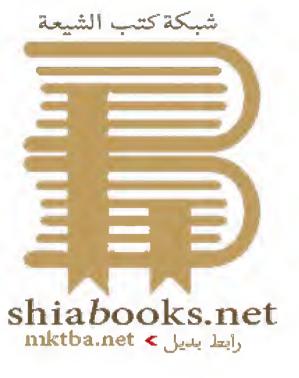
جميث ل جسبر د ڪتور في الآداب الاعالى سيرنهواديه



جميت لرستبر ديڪٽور في الاد سَت

# 

#### صدر للمؤلف

#### حروايات

1924	هار الجمال	حر <sup>ا</sup> ی
1908	دار الروائع	بعد العاصفة
1971	دار الطليعة	قدق

## سير ودراسات

1919	دار الجمال	مي وجبران
1901	دار بیروت	مي في حيانها المضطربة
1900	المطبعةالكاثوليكية	مي الاديبة
1904	دار الريحاني	جبران رجلا واديبأ
1904	دارالمعارف (مصر)	طاغور
197.	المطبعةالكاثوليكية	الجاحظ ومجتمع عصره
1433	دارالكتاب اللبناني	الجاحظ الاديب
1974	دار الثقافة	الادب الاميركي الحديث
1975	المطبعة الكاثوليكية	لبنان في روائع اقلامه

#### مخطوطات

حلم نمرود مسرحية نظرات في الادب الحديث دراسة خواطر من الصميم وجدانيات

إلى

كلودأ



# توطئ

الريحاني الرجل والاديب! وهل يصح في اي حال ان يفصل الرجل عن الاديب لدى رسول الحرف?فلو خيرنا في اروع آثار الامين،لاخترنا غير مترددين سفر حياته . فقد ملأهذا الاديب وجوده حتى الطفاف كداً خيراً على صدق التجربات . فالكلمة التي قالها ومشى لم يشأها لفظة شفاه ولا تركية حروف . بل فيض نفس مثقلة استمر فيها وهج الدماء . « حياتي اريدها ان تشع لا ان تفرقع » .

على هدي هذه الكلمة عاش الامين فكان ادبه اشعاع حياته ،وكانت حياته ذلك الينبوع السخي الذي غرف منه مادة قلمه . فلا الاشعاع خف على الايام ، ولا الماء النمير انتهى الى جفاف .

قاما صحت كامة بوفون « الاسلوب هو الرجل » في أديب بقدر ما صحت في صاحب « قلب لبنان » . فذلك الانسان ألحر الصريح المرح ، العصبي المزاج ، جاء انشاؤه نزقاً ، سلساً ، فكهاً ، متاسك الحبك ، بعيداً عن كل غرابة وتعقيد ، فالريحاني الواثق بنفسه وثقافته واختباره نجنب شعوذة في التعبير وغموضاً في الاداء يلجأ اليها إما مقلد يغلف الكلم طمساً لأصل ، وإما متأدب يوهم بالعمق حيث يصرخ الفراغ ، وإما متسول شهرة ينهج نهج البهلوان .

اما المضمون فما كان في نتاجه إلا عصارة اختبار . كان لحمًا وعرقاً . فالريحاني ما تغنى مرة بالحق والحربة والجمال ليتنكر لهما جميعاً اذا زهق حق وهيست حرية وتمومس جمال ، بل سار ابداً في طليعة الجهاه يكشف صدره للنقمة والغدر وصغارات البشر . فاذا به يطرد حدثاً ويضطهد شاباً وينفى كهلا . وهو الى هذا يقول كلمته ويمشي مشية الرسل الاحراد نحو الهدف الاسمى .

« ان جنوناً في سبيل الحرية لحير من العبودية . وان عزاً في المات لحير من حياة شاكية باكية تتوسد اليأس وتلتحف الحنوع » .

احب الريحاني لبنان فما قصر حبه على غزل بالارز والآس والبيلسان، بل جسد العاطفة نضالا فحارب العثمانيين يوم هم في سدة المجد، وثار على الانتداب فلا ساوم و لا هاود.

احب لبنان فما عبر عن حبه بمدح ينمق على خواء ، بل اعمل المبضع

بالفساد ونادى بالتساهل الديني والوحدة الوطنية والحرية والتقدم وكرامة الانسان .

واحب الريحاني العرب فما تغنى بالنخيل والهرم ودجلة وعرار نجد، بل مضى يطوف العــالم العربي بلداً بلداً في اصعب اسباب التنقل واتصل بالملوك والرؤساء والشعوب يعر "ف بعضها الى بعض ويهد سبيل التفاهم المؤسس على العلم والحضارة والحبر اليقين .

وآتت كلماته نمارها حيثما زرعت لأنها تمخضت عن اخلاص اكيد وانطلقت شرارة محرقة من قلب ابي "كواه الجهل والتعصب والاستعباد . الريحاني ، رجلا واديباً ، كان مناضلا ملتزماً لا يعرف للازدواجية صيغة ولا للمالأة طريقاً على كثرة المتلونين الزاحفين على الجباه . لقد رفع الكلمة الى مستوى القيمة وكرس حرمة الاديب في دنيا العرب ، خاذا آثاره اليوم افعال ايمان بالانسان الامثل وبلبنان سيد حديث، وبعالم عربي متطور موحد الرأي يفرض على الكون حضوره .

امين الريحاني ، رجلا واديباً ،حقق فكرة الالتزام على ارفع مستوى. لقد وعى ان الاديب الحق كائن اجتماعي كسائر البشر ، يشي على توابهم، يتحدث بلغتهم ، يتنشق هواءهم ، يتألم تألمهم، يفرح فرحهم ، يقلق قلقهم، وان عليه بالتالي ان ينطق بلسانهم فلا يراوغ ولا يتلهى بترصيع القشور . لقد اهرك الريحاني ان الأديب الاهيب هو اولا وآخراً انسانشفاف الحساسية ، يقظ الحيال ، يعيش الوجود في صميمه ويستوحي اختباره بإخلاص . لقد فهم ان الاديب الحي نداء للقارىء . فبقدر ما يبطل الأديب ان يكون جزيرة ، بقدر ما يبط من برجه العاجي الى الارض فيتصل بقارة الحياة والانسان بقدر ذاك يفعل نداؤه ، بقدر ذاك يشهد على جيله ويؤدي رسالة .

رغم انقضاء حوالي ربع قرن على غروب الامين ما زالت آثاره حية نهزنا وما زال نداؤه الثوري فاعلايودده الاحرار ترنيمة صباح فيذكرون. رسولا عاش رسالته ولم يفصل بين الادب والحياة .

بيت شباب في اول تموز سنة ١٩٦٤

جميل جبر

# الفصل الأول

امُن الرّحياني فن حيساته

#### حداثة صاخبة

عــــلى شفا واد مهيب ، عميق ، يغسل قدميه في نهر الكلب مثناء ، وتكلل الطبيعة هامته ، في الربيع والصيف ، بأزاهر اللزائ ، تقوم قرية صغيرة وادعة ، بين اللوز والزيتون والتوت . هناك في الفريكة ، ( قضاء المتن في لبنان ) ، ولد امين الريحاني في الرابع والعشرين مــــن. تشرين الثاني ( نوفمبر ) سنة ١٨٧٦ .

ابوه فارس بن انطون ، بن يوسف ، بن المطران باسيل البجاني آ تلميذ مدرسة رومه ، ينتهي نسبه الى اسرة سعادة في اهدن ، نزح جدوده الى بجة فانتسوا اليها ، ثم غادرها فرع عبد الاحد واقام في الشاوية \_ قرب الفريكة \_ حيث لقب بالريحاني ، لوفرة شجر الآس النابت في جوار منزله .

كان ابو امـين تاجر حرير ميسوراً ، صاحب رأي ، كريم الخلق ،

١ مقاله ( وادي الفريكة ).

٧ لم يكن محظور [ بعد ان يسام الكاهن المتزوج اسقفاً

يجسد عقلية اللبناني المتوسط ، المحافظ على التقاليد ، الساهر عملي مصالحه وعياله ، القانع من الدنيا برضي ربه .

وام امين هي انيسة ، ابنة جفال طعمه البجاني ، شيخ القرنةالحمراء. كانت تصرف اوقاتها «صائمة » مصلية ، زاهدة ، متعبدة ، تقرع الصدر وتتردد الى الكِنائس ١ ، وتعنى بتدبير منزلها وتسهر على زوجها وابنائها شأنها في ذلك شأن القروبات البعيدات عن مرافق المدنية « الطازجة » · اما سبب انتقال العائلة الرمجانية الى الفريكة فهو الحب ، على حد ما يروي لنا الامين · كان والده شريكا لخاله في معمل حرير ، بالفريكة ، فاضطر أن يقضي معظم ايامه في منزل خاله المذكور . وهناك اجتمع غير مرة بنسيبته أنيسة ، فكان بينهما سلام فكلام فهيام ، ثم زواج كخاتمـة الغرام . الا ان ثمة مشكلة جوهرية كان لا بد من حلها بادىء ذي بدء الا وهي مركز الاقامة . فالعروس شاءت ان تسكن القرنة الحمراء،مسقط رأسها ،والعريس ابي ان يترك الشاوية ٢ . وكادت تقوم القطيعة بينهما... لولا سهر العناية على المتيمين . وتقرر آخر الامر في مجلس عـائلي ، ألا يقيم العروسان في الشاوية و لا في القرنة الحمراء ، بل فيما بين القريتين ، في الفريكة ٣.

١ من كلمة له في أحدى حفلات تكريمه في مصر سنة ٢٩٢٧

٢ على حد قول امين الريجاني

٣ قلب لبنان ٨٨

في هذه القرية الهادئة فتح امين عينيه على بيئة مارونية متدينة، مغلقة على نفسها، تعيش بخوف التركي، وبخوف بعبع التطاول على التقاليد، شعارها «حاكمك وربك» ومثلها الاعلى «رأس الحكمة مخافة الله». وفتح اذنيه على الكرازة باجتناب الهراطقة والكفار، وفتح ذهنه على جهل قاتم يستثمره الاقطاعيون لتركيز سيطرتهم على البسطاء.

عرف امين منذ الصغر ، بحيويته الجائشة وشدة المراس . فكان والدا مغامراً ، مولعاً بالحركة ، يطوف في الغابات ، بمزق الثياب، حافياً، تارة يتسلق الاشجار ساعياً وراء اعشاش الطيور، وطوراً يطاره الفراشات بقبعته ، او يجمع الازاهير لتزيين مذبح العذراء . ويعود الى البيت ، مهشم اليدين والرجلين والقنباز ، فتغسله امه وتغير ملابسه ، وهي تؤنبه مرة وتصفعه مرات ، فلا يرتدع .

اتفق مرة ان رأى الصي بغلا مربوطاً بشجرة امام الباب ، فحدثته نفسه بالفروسية ، دنا من البغل فك رسنه ثم صعد الى الحافة ، ومنها الى ظهره ، مشى البغل متباطئاً متحققاً امره ، فنتل الصغير الرسن ففهم ذو الاربعة المذكور وراح يخب ثم يعدو ، فتقلقل الفارس الصغير وهوى الى الارض ، وبينا هو بين الارض وجلال البغل رآه احد الجيران وهرع

اليه ، فلمه وحمله ، دامي الرأس ، الى امه ١ .

وتعصف رياح الشتاء فتتربع العائلة وجيرانها حول الموقد في الليالي السود ، ويجلس الامين على « شطيح » اغبر ينصت باهتمام الى نوادر جحا ترويها جدته المستقوية على الدهر ، او يصغي الى فصل من قصص «رواية بني هلال » يتلوه العم أبو مخايل مترنحاً وكانه على صهوة اصيل.

وتستمر هذه الحال الى ساعة متأخرة من الليل والسامعون يهزجون ويقهقهون ، وامين يسمع معجباً فرحاً ، خلي البال .

لما بلغ الولد المدلل عامه السابع ،ارسله ابوه (وكان يومئذ يدير معملا المحرير في بيت شباب) الى مدرسة الشدياق متى القائمة تحت الجوزة في الساحة السفلى من هذه الضيعة . وهناك على مقعد كسيح ، امام الكنيسة (السيدة الكبرى) كان بجلس الشدياق يلوح بقضيب في يحسناه يتهدد الكسالى ، ويعبث بلحيته في اليسرى ، وهو يتهجأ ، متثائباً ، مقطعاً من مقاطع «الغصن النضير» والاولاد حوله عسلى الحصيرة يرددون قوله كالصدى ذاهلين ، يجمدون رموشهم قسراً .

لقاء هذا التعليم « النظيم » كان الشدياق متى يتلقى « سبتية » كان السبوع . والسبتية ، كما لا يخفى ، وغيفان من الحبز كان يجملها الطالب

١ قلب لبنان ٢ ٣٠٥

Y V » » Y

تحت ابطه ، كل سبت . ولما نكل امين بواجبه ذات يوم فلم يوف قسطه ، طرد من المدرسة الشدياقية على غير عودة .

انتقل الطالب المتمرد عـــــلى الشدياق والسبتية الى مدرسة علمانية ، انشأها نعوم المكرزل افي دير مار جرجس بجردق ، على كتف الشاوية ، فدرس فيها مبادى العربية والفرنسية والحساب طوال عامين ، واذ لمس المعلم في التاميذ حدة ذكاء ورغبة في الاقتباس اولاه اهتماماً خاصاً محسد علمه .

#### انقلاب

عهد ذاك مر قنصل فرنسة بقرية عين عار ، في طريقه من بيروت الى مصيفه بكفيا ، فخرج التلاميذ بأثواب العيد صفاً واحداً وراء استاذهم نعوم يرحبون بالقنصل في ساحة البلدة ، بين مزراب العسين ومدخنة الحرير . وكان المعلم قد نظم في مدح القنصل ودولته قصيدة رنانة واختار أميناً لالقائها .

القى الفتى الجريء خطاب المعلم بلهجة اعجبت القنصل ، فخصه هذا بعطفه ووعده بأن يستصحبه في آخر الصيف الى بلاده ليكمل علومه فيها الا ان الام ابت فراق ابنها البكر فانطوى المشروع الى الابد .

<sup>،</sup> مؤسس جريدة « الهدى » في نيويورك

ضرب الغرور في رأس امين نتيجة استمراره في التفوق فتقاعس وصار مشاكساً مشاغباً . فعاقبه المعلم عقاباً قاسياً . ضربه على رؤوس انامله محموعاً بعضها الى بعض عشر ضربات شديدات بالمسطرة أ . فصمم الطالب المتكبر على ان ينتقم من استاذه انتقاماً شنيعاً ، وراح يتحين الظروف .

وحانت له الفرصة يوم دعاه الى لوحة التمرين السوداء قائلا له: خذ الطبشورة واكتب . فوقف امام اللوح ، والطبشورة بيده ينتظر الاملاء قال : اكتب – الحمار ، فكتب : الحمار . فقال اكتب : امين ، فكتب نعوم . فضحك التلاميذ وهلها ا ولكن المعلم استشاط غيظاً وعاقب الصبي المتمرد عقاباً لم ينسه كل حياته .

اقفلت المدرسة بعد حين فاضطر امين ان يدرس على نفسه . كان يتأبط كتابه وبمضي الى الوادي فيدرس في هدأة الطبيعة حتى الغروب ، ثم يرجع الى البيت ليسهر على نور السراج متعظاً بقول ابيه « الدارس غلب الفارس » ولكم نهته امه عن اكبابه المرهق على المطالعة خوف ان يضعف بصره ، ولكن انفته الفطرية ابت عليه الا ان يسير في الطليعة

او يموت .

<sup>----</sup>

١ فلب لينان ٦٦

# إلى ارض كولومبوس

قد يكون حب المغامرة وركوب الاسفار من طبيعة اللبناني . انه قلق في بلاده يضيق محيطها عن طموحه فيولي وجهه شطر المهجر تنهيأ له فيه اسباب التقدم فلا يعبأ بالمصاعب .

فكر امين في شؤون غده فحار بما يشتغل . أيتجر بالحرير مع أبيه ، وتجارة الحرير في كساد ? ام ينصرف الى الزراعة ويقنع بخبزه اليومي شأنه شأن العامة من ابناء قومه ? بل لماذا لا يهجر الوادي الى اميركة مع عمه عبده المزمع على الرحيل ! لكم اثرى اللبنانيون ولمع اسمهم في ذلك القطر الفسيح ! .

فكرة راودته عن نفسه فتدبرها ملياً ، وراح يراجع ما تيسر له من تاريخ وجغرافية مستطلعاً احوال اميركة التي لم يكن يعرف عنها غير ما رآه في « صندوق الفرجة » ليلة عيد مار مارون .

وشقت الفكرة طريقها البعيد في ذهنه ، على الايام ، رغم مرارة الانفصال عن الاهل والوادي ، واملت عليه العزم النهائي على الرحيل . فأبجر الفتى وعمه ومعلمه نعوم الى الولايات المتحدة يشبعون فيها نهمهم الى الثروة والمجد .

مدينة الغرائب والعجائب! دورها تنطح السحاب وألوف من المداخن تنفث في وجه السهاء روحها الغازي . آلات وسرعة واحجام ودواليب وأنواع من البشر من كل بلد وجنس ، وسعي الى الثروة لا يهدأ ولايمل مظاهر ادهشت ابن الفريكة ، الغريب الساذج ، واشعرته ان في العالم غير الشدياق متى وام مخايل وعفيفة و « الكرخانة » والعنزة الكحلاء . في نيويورك ، ادخل عبده الريحاني ابن اخيه مدرسة راهبات المحبة ، في نيويورك ، ليتعلم الانكليزية فيساعده في العمل التجاري . فللم في حي نيوبرغ ، ليتعلم الانكليزية فيساعده في العمل التجاري . فلم كاتباً في حيه نيوبرغ ، ليتعلم الوامين ، فترك الطالب مدرسته ليعمل كاتباً في عله .

كان يرد على الرسائل ، وينظم الحسابات بسرعة ودقة ليوفر شيئاً من الوقت يصرفه في قراءة بعض المنتخبات المفسرة من اعلام الادبالفرنسي والانكليزي ، وكان قد بدأ يتذوقها في المدرسة . حتى اذا اعياه الجهد العقلي المستمر توجه الى النهر ، واختبأ في منعطفاته يصيد السراطين فيبتاع بثمنها الكتب الانكليزية القريبة المنال .

« المتكتين على وسائد الريش المتسربلين بالخز والحرير » .

غا ولع الامين بالدروس والمطالعة غواً مستمراً فقراً في جملة ما قرأ بعض آثار فولتير وروسو وبيرون، ورغب في اقتفاء خطى هؤلاءالاعلام في غده، وقد وجد في كتاباتهم صدى لما يسمو اليه من فعالية وانطلاق. بيد انه كان تعسأ معدماً لا ينتهي من معالجة الارقام نهاراً حتى ينصرف الى الدرس ليلا والى انتشال مياه المطر ليجفف مأواه.

خطر له أن مجنوج على هذا الواقع الخانق ، أن يتحرر منه ، فجعل يتعرف الى شبان الحي ، وفي مزاحهم ومسامراتهم نسي نفسه حياً ، فعقبت الخطوة الاولى خطوة ثانية ثم ثالثة ، فأذا بالشاب المنكمش على ذاته يرود الملاهي ، يسكر ويطرب ، ومجاول تخدير شعوره الباطني ليذهل عن ضائقة معنوية ومادية استقوت عليه .

#### شرود

تفتحت عيون الاهل على الولد الطائش فعنق ابوه عليه وهدده بالطرد اذا استرسل في مجونه او جاوزت سهراته الساعة العاشرة . كان يمتعض في قرارته ، ويتألم كلما انطوى على نفسه . لكنه كان اعجز من ان يقاوم طغيان البيئة والعادة ، فاستسلم مرة ، وتذمر مرأت .

واتفق مرةانعاد من احدى سهراته بعد انتصاف الليل ، فطرق باب

المنزل ، ثم عاود ، لكنه لم يسمع غير جواب ابيه الثائر : « ارجع من حيث اتيت » . فانقبض وجعل يصغي الى رجاء امه تلتمس له العفو منه حتى فتح الوالد الصارم الباب ، آخر الامر ، واذن له ان يبيت تلك الليلة على ان يرحل عند الصباح .

قضى امين ليلته فريسة الكآبة لا يهدأ روعه ولا يستقر على رأي . فاستعرض ماضيه يوماً فيوماً وفكر في عمل مستقل يناسب ذوقه، ويؤمن له الرغيف .

في فترة اليأس هـذه خطرت له فكرة التمثل المسرحي ، وكان دواجه مشجعاً . فقتل الفكرة تأملا وتحليلا . ولما بزغ الفجر حمل حقيبته وقصد خاشعاً الى هنري دجويت ، الممثل المعروف الذي تحدثت المجالس يومذاك ببراعة فنه .

وصل الى دار الممثل . عرقه بنفسه طالباً ان يلتحق بجوفته السيارة محتدرج . فقدم له هذا امتحاناً عسيراً ، نجح فيه . واذا هو في عامه السابع عشر يجوب انحاء الولايات المتحدة ويتوقع شهرة سريعة تثار له من قدر ما انفك يعبث به .

كانت باكورة اعمـــاله تلك اشتراكه في تمثيل مسرحيتي « هملت » و « و بكاردوس الثالث » لشكسبير » ، فأبدى مرونة في الاقتباس ، و دقة

١ اشترك في التمثيل مع روز اتنغ ، وولم اون ، وتوماس كولمن .

في الملاحظة ، اكسبتاه اعجاب زملائه ، واكسبتاه خصوصاً قدرة على الاقتداء وبراعة في ادراك التفاصيل لازمتاه فسحةالعمر . الا ان جيبه ما فتئت خاوية اكثر من ذي قبل .

في هذه الفترة الجائرة كتب الى ابيه يطلعه على ما اصاب من نجاح معنوي قال: « الشركة التي انا فيها اشتغلت ثلاثة اسابيع ربحت خلالها ثلاثة آلاف ريال ، نصفها لأصحاب العمل والنصف الباياق لأصحاب التياترو ، وشغل التياترو مثل شغل البورصة يخسر فيه الانسان دراهمه او يربح قدرها برمشة عين».

وانتقل من ثم الى نقطة حساسة اكثر ، فأعلنه امراً ارهق ضميره ، وهو انه لما عزم على الاشتراك بالفرقة التمثيلية طلب رئيسه اليه مئة دولار كاسهام بالنفقات . ولما لم يتوفر له هذا المبلغ ، لا كله ولا بعضه ، احتال على والده ، الطيب القلب ، فجعل بين الحوالات المصرفية على مكتبه برسم العملاء ، حوالة بخمسين دولاراً لأمره هو . فنجحت الحيلة وطار « الممثل » البارع بخمسين دولاراً الى رئيس الفرقة . لكن هذا وفض نصف المبلغ ، فعاود امين الكرة ، على بساطة ابيه ، ودفع ما عليه نقداً وعداً واطمأن .

غير ان الشهرة التي تخيلها امين دانية القطاف ما كانت إلا ظلامالبث

ان تقلص ، فتحمل خيبة الاخفاق الاول وما اورث من حموضة ولم ينثن فالصبر مفتاح الفرج . . . الا ان فرجه لم يفتحه الصبر على طوله . وزاد في البلية استياء والده من الحيلة التي انطلت عليه ، فثار ثورة اعنف عـــــلى الهلد العاق .

في بيئة الممثلين ، العابثة المحمومة ، تأصل المجون في الامين تأصلا غلب على ارادته الطرية . فصار يعايش الحليعات ويعب من عطرهن السام على غير ارتواء . لكنه مع هذا كان يراسل امه ويخبرها بتنقلات وانتصاراته استدراراً لبعض نقود كانت ترسلها اليه خفية عن ابيه ، وهي تلح عليه بالرجوع الى الحظيرة .

وانتقلت فرقة دجويت من خيبة الى خيبة حتى كانت نهاية المطاف في كانسس سيتي ، غربي الولايات المتحدة ، حيث مثلت رواية « بند كت ارنولد » القائد الحائن الشهير في حرب الاستقلال الاميركي ، فأفلست ، واضطر « الابن الشاطر » ان يرجع الى ابيه نادماً مسترحماً ، وقد عول على ان يجحد ماضيه وينظم حياته على اسس جديدة مثمرة كما عول على درس الحقوق في اوقات الفراغ .

## الحبيب الاول

في الحي الذي سكنه امين اقامت حسناء رشيقة ، غضة الصبا، قدمت

حديثاً من غرزوز (لبنان) . تعرف اليها مصادفة فانفتح قلبه لها . صار بجالسها سويعات « فردوسية » وهو مشدوه ذاهل ، يستمع اليها ويتنشق انفاسها ولا يمل . كان يشعر بلذة التغريد في حديثها وبلذة التقييد في فمها الصامت ، وبلذة الكآبة حين تغمض وتفتح عينيها ، فبردت طراءتها جفاف عيشه وادخلت في صميمه مصل التفاؤل .

غير ان هذا الحب العذري العاصف ما كان ليحرم الامـــين بعض صداقات بريئة . فثمة جارة فتانة تعود رؤيتها كل شروق ما ادرك ان علاقته بها جاوزت المألوف الايوم بعدت عنه ...

لما رحلت سأل نفسه ، لأول مرة ، هل احب حقاً تلك الجارة ? والغرزوزية ؟ كيف يتسع قلبه لاثنتين ? لا ، انه ما احبها ، وكيف يحبها وهي متزوجة واكبر منه سناً الاكما مجب الطفل المريض امه . لم لا يزيح اذن عن صدره كابوساً ويعلنها ما يخالجه من شعور لا تشوبه جسدانية العشق حتى في الخيال :

« انا اراك في عين الروح كلما مررت من امــــام بيتكم القديم ، فهل نسيت جارك وصديقك ? هل لك ان توسعي له في قلبك النقي مكاناً ؟ نعم انا اعرف انك متزوجة ولك بعل فاضل اعتبره كأبي ، ولكن ألا يوجد في قلبك الواسع العميق زاوية اخرى».

« لا تظني اني اعشقك ، بل احبك فقط واستحسن جمالك ، ويلذني حديثك ، وتطربني نغمات صوتك ويرتاح قلبي لما يراه فيك من المزايا... تذكري الماضي ... انا لم اعد اهخن الاركيلة منذ سفرك . اتعرفين السبب ? انه بسيط فأنا لا احب الاركيلة ، بل ابغضها . ولكن اي شقي على وجه الارض يرفض ان يدخن من « النربيج » الذي خرجت حامته من فمك ؟ » .

« احببتك وانت صغيرة بعد . كنا نلعب معاً ونتخاص ونتقابل ثم نتصالح ونتعانق . كنا نهب العالم وما فيه في سبيل هنيهة عذبة من تلك الهنيهات التي قضينا ونحن نقطف زهور الاقحوان ونسأل اوراقها عن حظنا في الحياة .

« اني لا ازال اذكر يوم زلت بك القدم وانجرحت . لقد بكيت البلذاك ، وبكيت ، وما استطعت ان انام فصليت لكي تشفي . واليوم ما زال حبي كما هو ، بل ازداد ضراماً مع السنين . اني اشعر بأني اتيت الى هذه الدنيا لاحبك واحبك وحدك .

اجل يا حبيبتي لقد صحبنا ، يوم جثنا الحياة ، ما سيطر ويسيطر على كل حياتنا ٥٠.

وتتالت رسائله اليها وفيها من نقاوة الحس وصدق العاطفة ما يسمو بالاعتراف المبتذل الى مصاف الروعة . لقد حسب انه وجد فيها فردوسه الارضي الذي كثيراً ما سعى اليه .

#### ارتداد

لكن الامين رغم هذا الحب المزدوج ، لم ينصرف عما عول عليه بعد فشله في التمثيل المسرحي ، لقد انقطع الى مدرسة ليلية يتهيأ لامتحان الحقوق . حتى اذا حان جازه بنجاح (سنة ١٨٩٨) ودخل جامعة نيويورك ، قوي الثقة بنفسه ، كبير الامل بعيش رغد .

غير أن الواقع ما لبث أن بدد أوهامه ، فأذا عالم القانون لا مجتلف جفافاً عن عالم اليرد والفانورة الذي حاول التخلص منه ، فتملكته السويداء وتأصلت فيه ، لا سيما وأن حسناءه الغرزوزية بعيدة لاتلون أيامه الراتبة ، ولا تهدهد فيه نزوات القلق .

في وحشائه تلك كان يلوذ بالقلم ويدون خواطره ويرسلها الى جريدة والهدى، مقالات صغيرة ، فيها نزق الشباب لغنهار كيكة لاتعرف للنحو

١ مترجمة عن الانجليزية

أصولا ولا للصرف صيغة . كثيراً ما اعياه التعبير بالعربية فاستعان بانكليزيته . وفي المطبعة كان محررو تلك الجريدة يهذبون عبارت ويصححون تراكيبها قدر المستطاع . . ولكم شاقه الافصاح عهدئذ عما تلجلج في صيمه ، في مؤلف مستقل ، فخانته امكاناته ، « يروى عن بعض المحتاب والشعراء انهم الفوا الكتب وهم احداث ، وانا قد بلغت الثانية والعشرين ولم اكتب مجلداً » .

أنه الكاتب المحموم يستيقظ في الريحاني فيحمله على أنماء مواهبه العقلية وعلى الأفادة من وقته كله ويصرفه الى عالم داخلي أغنى وأخصب مسن العالم الذي بذل فيه حيوية الصبا.

وهكذا ارتدع امين عن طيشه المستحكم ونقم على ماض عقيم لم يورثه الا المرارة ، وجعل يتأهب للعمل الجدي ليحقق ذلك الحلم الادبي البعيد الذي تمكن منه وهو يطالع محركي عقول الاجيال . لقد نشأت فيه رغبة ملحة الى التفتيش عمن يشعر شعوره ويشاطره اساه عندما يضنيه العمل الفكري ، فاختار نخبة من المهاجرين اللبنانيين والسوريين ، كان يتصل بهم كلما عرض له امر فيتشاكون فيا بينهم ما يعانونه من غربة في المحيط الذي يعيشون فيه ، ويتعاونون على حل مشكلات يومهم وتهيئة الخيد .

اما شذوذ الشباب فلم يعد له شأن يذكر في توجيه حياته ، فقدروضه لحدمة طموحه الفكري. فتحول ولعه بارتياد الاندية المشبوهة الى مجالسة الادباء والفنانين ، يتذوق احاديثهم ومجاول انتهاج نهجهم ، لكنه ، وهو حديث نعمة في الحقل الثقافي ، كان يشعر بعجز صارخ عن مجاراة الموهوبين منهم والمتمرسين ، فيئن كبرياؤه وتثور عزة نفسه ، فيعمل صامتاً على استكمال شخصيته ، لا يعبأ بمتاعب الجهاد ، وكان شعوره بقصوره هذا اشد حافز له على التقدم .

كان يرجع ، عادة ، من متجره حوالي الساعة السادسة مساء فيكب على المطالعة الجدية في وحدة مطلقة . كان يقرأ ، بالله غة الانكليزية ، شكسبير وبيرون وشيئاً من هوجو مترجماً . مال خصوصاً الى الكتب الاصلاحية والعلمية والتاريخية واخصها « زمن البرهان » لتوماس باين ، و « آثار الدول » لفولني ، و « ولدن » لثورو ، و «الحكايات» لفولتير ، و « الثورة الفرنسية » لكارليل ، و « العقد الاجتاعي « لروسو ، و «النزاع بين العلم والدين » لورابر ، ومجموعة مقالات ومحاضرات في المذهب الدرويني لتوماس هكسلي ، وكان يدون ملاحظاته بصددهم على هوامش الكتب ، وهي ملاحظات لا تخلو من دقة التنبه وعمق الفهم .

كانت حالة ابيه المالية آنذاك متقلقلة ، فاضطر أن يبقى في المحل

القديم ، وقد ادخل عليه بعض تصليحات سطحية منعت تسرب الماء اليه لكنها ما صدت عنه الرطوبة ، فتغلغل تأثيرها في رئتيه بعد ان اضعف بنيته الجهدالذهني المتواصل والسهر المفرط ، فذبلت نضارة وجهه واخذت تخور حيويته ، فأشار عليه الطبيب بالعودة الى لبنان ليستشفي في جوه الهادىء المبرىء ،

### العودة الاولى

عاد الامين الى لبنان يائساً ، عليلا ، فقير الحال ، بعد ان كان يحلم بالرجوع ثرياً حليفه الجاه . لقد اراد ان يجعل القـــدر مطية لاحلامه يسخره كيف شاء ، فجمح به هذا القدرالحرونواذاقه ، بالجفاء الشامت، مرارة الخذلان .

وصل الى لبنان في اوائل صيف سنة ١٨٩٨ ، فأقام في بيت جدته في الشاوية \_ قرب الفريكة \_ يعب انفاس الوادي السليمة ، ويسر الى الطبيعة بآلام خيبته . وفي كنف تلك الراحة المنعشة استرد على الايام حيويته فتلألات آمال امسه امام عينيه من جديد .

اتيح له ، وهو في بلاده ، ان يطلع على تأخرها الاجتماعي الفاضح . فساءه ركود مواطنيه وتأخرهم عن ركب التقـــدم ، بقدر ما امضه تشبئهم بالتقــاليد المحجرة والتعصب الديني . ولا غرو ، فقـد ترعرع في

موطن الحرية الشاملة والتقدم السريع ، وهرس على معلمي التساهل والتحرر ، فولد فيه التفاوت البارز بين البيئتين نقمة جامحة على الرجعية والحنول بمخضت عن ثورة في نفسه رام اعلانها في كتاباته . فكان لابد له من التعمق في العربية ، لغة قومه ، ليحقق مبتغاه .

دخل المدرسة اللبنانية ، في قرنة شهوان ، يعلم الانكليزية فيهاويتعلم العربية من قبيل المقايضة . وكان اول ماطالعه في لغة الضاد هناك « نهج البلاغة » و « اللزوميات » ثم « مقامات الهمذاني » و «رسائل الخوارزمي» و « نفح الطيب » و « الاغـــاني » . لقد استوقفه خصوصأديوان المعري فدرسه باهتمام ، كأنما لاءمت مزاجه الفطري تلك النزعة الظاهرة لدى الشاعر الاعمى الى الشك والتمرد والاستقراء والزهد ، فكان بتأبط « اللزوميات » كل مساء ويتجه الى غابة تشرف على الساقية الفاصلة بين الشاوية وبيت شباب . وهناك ، على صخرة ملساء يظللها الصنوبرالوارف كان يجلس الفتى المتأمرك ، النحيل الجسم ، الانيق الهندام ، المسدل الشعر ، الحليق الشاربين ، وقـــد ارتدى قبعة مخملية عريضة الاطراف وحمل نظارتين مذهبتي الاطار ، يتكىء حيناً على ذراعه اليمنى وحيناً يرتمي على مرفقة مستديرة ، وكتابه يضطرب بين يديه .

اوحى الـــــيه شغفه بذلك الديوان بأن يترجمه نظما الى الانكليزية

فيعرف الغربيين بفيلسوف المعرة ، كما عرفهم من قبل فيتزجر الد بعمر الحيام ، فيكون حقاً صلة فعالة بين الشرق والغرب .

وازدادت الفكرة اختاراً في ذهنه حتى نضجت . فلما شفي من علته، خريف سنة ١٨٩٩، سافر الى اميركة حاملا ابا العلاء، محاولا ان يطلقه من محبسيه في ذلك الجو الفسيح .

ومع السفرة الثانية الى العالم الجديد تنتهي المرحلة الاولى من حياة صاحبنا ، مرحلة دراسة وسفر وخيبة وامل واختبار ، هام خلالها متردداً يفتش عـن طريقه ولا يستقر . وهكذا نشأت شخصيته الادبية متأثرة بعوامل شتى . منها مطالعاته المتنوعة التي فتحت امام عينيه آفاقاً رحيبة ، ومنها تناقض البيئتين اللتين آوتاه ، من تعصب وتحجر وتقليد في بــــــلاده الى تساهل ونهضة وانطلاق في العـــالم الجديد . ومنها البؤس الاجتماعي الصارخ الذي رآه بأم عينه في العالمين كليهما . بيد ان هذه العوامل ، وان فعالة الاثر، ما كانت وحدها لتخلق الريحاني الاديب لولا نزعة فطرية قوية فيه حدته على السعي وراء الحقيقة ، وعلى السمو بالكائن البشري نحو المثال ، لولا طموح جامح دفعه لأن يكتب اسمه بأحرف من نار في سفر التحرر .

والآن هاكه يقص حكاية نشأته بطريقة رومنطيقية درج عليها في

44

صباه:

« تناولت الكأسمن يد الوجود وقد ملأها الشعب الاميركي بنفسه ، رشفت في نيويورك الجام تلو الجام من العلوم المشوبة وفيها اشياء من الجهل المتلالىء وما يماذجه من الحوف والاعجاب .

وغدوت بعد عشرين سنة في اميركة معجباً بنشاط الشعب الاميركي وبجريته في الفكر والقول والعمل خائفاً من نتيجة الجهاد المادي هناك ومن التكالب في سبيل الحياة الدنيا .

ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وتردداً في مضار الحياة ، صرفتني عن حقائق الوجود المادية وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية ... ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي فوجدته في امور كثيرة ، اخلاقية ، واجتاعية ،ارقى من الشعب الاميركي واحب الى من كان مثلي ،

تلك هي الكأس التي شربها الامين في ضيافة الشعب الاميركي وهي « كوكتيل » مـــن الحوف والاعجاب والاخفاق والنشوة كما رأينا ، وتلك هي الآداب التي تتلمذ عليها : منها مازاده ضعفاً وتردداً ، ومنها ما جعله يتهيب عواقب الجهاد المادي ، ومنها ما زين له الحقائق المعنوية ، وتلك هي الاحلام التي دغدعت خياله الطري عهدئذ : شهرة خاطفة تجعله

محمجة كل قارىء وثورة على البؤس الذي ذاق سمه يافعاً ، وتجديد امجاه فولتير والثورة الفرنسية في هذا الشرق المخدر بأفيون تقليده ، الراتع في « نعيم » سلبيته .

# في اميركة

وصل الرمجاني الى الولايات المتحدة وهو على اشد ما يكون استياء من اوضاع بلاده التي كانت لا تزال مسرحاً للتنابذ العنصري اطاره الجهل فتولدت في ذهنه فكرة اصلاح جذري لا تحققه إلا ثورة جارفة تشمل الروح والعقل والمادة كالثورة الفرنسية التي اخذت تسكره مبادئها . عليها فونسا قبل سنة ١٧٨٩ فأوحى اليه طموح الشباب ان يلعب دوراً حاسمأ يقضي على الرجعية والخمول لتنشأعلى انقاضها حضارة يقيض فبهسا دم حار خلاق · ولما كان يعتقد ان سبب الانحطاط الاجتماعي الرئيسي ينحصر في التعصب والجهل عزم على محاربة هاتين الآفتين بكل ما اوتي من جرأة . وكاناول عمل اقدم عليه اسهامه في جمعية الشباب الماروني في نبويورك ١ ه٠

١ كان رئيسها عهد ذاك المير يوسف ابو اللمع وكان بين اعضائها منه كري
 رحيم وامين الغريب ونجبب دياب .

اعتادت هذه الجمعية ان تقيم حفلة سنوية ليلة عيد شفيعها تدعو \ اليها الجالية اللبنانية السورية على اختلاف مذاهبها فتشرب في اثنائها الانخاب وتلقى الخطب ويعلو الهرج والمرج في غمرة التبخير والتزمير .

في تلك السنة ،سنة ، ١٩٠٠ ، طلب الى الريحانيان يهي وخطبة افتتاحية فلم يترده لحظة في القبول فأعد كلمة نارية ليلفظها على هشيم العصبية المذهبية فيقضي عليها دفعة واحدة . إلا ان للمتعصبين عيناً لا تنام فما ان علموا بما مجاك بالحقاء حتى بادروا الى الوالد المتمسك بدينه يجثونه على تأديب فتاه وكاد الحطيب أن يذعن لامر ابيه لولا الحوان له اوفياء اقنعوا الوالد بأن المجد ينتظر ابنه ، فأقلع عن الوعيد .

وقف امين ، وهو يتهيب الموقف ، يلقي خطبته الخطيرة ، لها ان استهلها وبين خطوطها الكبرى ثم وصل الى قوله و فلتجمعنا الوطنية إذا فرقنا الدين . التساهل هو اساس التمدن الحديث ، وحجر زاوية الجامعة المدنية ... التساهل اوجد الترقي والتقدم في كل فروع العلم والدين والفلسفة التساهل ايد سلطة الضمير ، حتى علا الهتاف والتصغيق ، فمسح العرق عن جبينه ومضى بعث سماصر فأفي معرض التنديد بالتعصب الديني استساغه بعضهم ، وشذ به بعضهم ، ووقف منه الآخرون بين بين ، فعمت الفوضى

۱ عبد مار مارون في شباط .

وسيطر الشغب . وفي حميا هذا المعمعان انبرى الحودي يوسف يزبك يرد على الحطيب لاعنا مقرعاً ، فتدخل المصلحون بحفظون الامن وانطلقت الالسن تلهج بذكر الربحاني المحرر . فكان الاصطدام الاول بينه وبين رجال الدين . وراحت جرثومة « المحالفة الثلاثية » تتغلغل في لا وعيه . اما الحطاب بجد ذاته ، فمحوره طعن حاد بالتعصب الديني ودعوة الى احترام ادبان الغير سعياً للتآخي في بنوة الوطن ، لأن لكل عقيدة انصارها واعداءها ، ولأن التسامح ضروري في القضايا التي لا يجمع عليها ، ومنها الطقوس الدينية ، لهجته جريئة غلب عليها طابع الهوس ، هوس الشباب المشبع بروح فولتير والانسكلوبودييين الطامع الى فرض مشيئته .

بعد انقضاء سنة على القاء ذلك الحطاب الناري نشرته جريدة «الهدى» فكان وقعه بليغاً في اوساط المغتربين ، تناولته صحفهم بالثناء على نبد التعصب شرط ان لا يؤدي الى فتور العقيدة ولا الى محاربة الدين ، فقويت ثقة الامين بنفسه وازدادت رغبته في اداء رسالة التحرر . لكن هذه لا تؤدى بالكلام وحسب ، انها تحتاج الى جهاز منظم والى المال عصب الجهاد . فضى امين يواصل عمله التجاري بعزية امضى ، ليدخر المادة اللازمة لتحقيق اهدافه.

كان يومئذ لا يروعه شيء في الحياة غير الحمق والجمود . وكان يعستز

بالقلم والكتاب ويبشر بيوم النهضة في البلدان العربية . وكان شبل دموس وعيسى الحوري رفيقيه في غزوة المكتبات الانكليزية فتغذوا بالغــــذاء الواحد وجعلوا « انغرمول وتوم باين وروسو وفولتير من حواضرالبيت على الدوام » .

« في تلك الايام كان شبل دموس يصدر جريدة اسبوعية اسماهـــــا « الاصلاح » وجهزها بالمدافع الرشاشة يطلقها عــــــلى معاقل بني عثمان ا وكان اهم ما يربط الامين بشبلي دموس وذلـك المدفعي الآخر عيسى الخوري حبهم المشترك للثورة الفرنسية واعجابهم بمبادئها ورجالها وبحروبها وبكل ما يتعلق بها ، ولقد قام بينهم شيء من التنافس في الاحاط\_ة بالموضوع فيقول شبل وبيده تاريخ الجيرونديين مثلا هل طالعت هــذا الكتاب يا امين ، فيسبقه عيسى اليه ثم يجيبه بعد ايام وقد ملأ هوامشه بجواش كثيرة . وبعد هذا يجري نقاش في المتن والحواشي و لا يبقى من الكتاب غير الجلد والخطأ في اسم المؤلف الذي يجب ان يكون واحــداً منهم « الثلاثة الاعة » .

ويعلق أمين على هذه الوقائع بأسلوبـــه الفكاهي فيقول: ان علمنا

١ وجوه شرقية وغربية س ١٤٤

وكنت مع ذلك اختصاصي بجياة روبسبير ، فكتبت لجريدة شبل سلسلة « الاصلاح » كان عنيفاً في حملاتــه على الظالمين اسميناه « مارا » وكان صديق نا ورفيقنا جميل معلوف يقول ضاحكاً : لست بخطيب لتدعوني دانتون فأشركناه وعيسى في الاسم فتجسم ثالوث الثورة ، فيــــنا نحن

كانوا يجتمعون مرة كل اسبوع في نزل فرنسي في الشارع الثامــن والعشرين فيقضون ساعات في المناقشات السياسية والادبية والاصلاحية وكل منهم متيقن ان اجل الاتراك في بلادهم سينقضي في غد قريب ،وان الحكومة العربية المستقلة ستتأسس على اركان الحرية والاخاء والمساواة من صنعهم ووحيهم .

في شارع برودواي ، حيث يزدحم بائعو الخضار وصبيان الازقــــة وتكثر المناظر القذرة والنارجيلات وطاولات النرد والشواربالسود كان يجلس امين وراء حاجز خشي قرب طاولة ضيقة عرجـاء يضع

١ وجوه شرقية وغربية
 ٢ عن البزابيت مككل

منهجاً لحياتـــ المقبلة ، لا يبالي رضي الزبائن ام غضبوا . لقد احب فالستاف اكثر من جميع الرجال السمان الذبن كانوا يباحثونه فيالتجارة والاعمال .

تألم الفنان الناشىء من واقعة التافه فعزم عـــــلى التخلص منه كيفها اقتضى الامر ، فراح بدرس اصول الموسيقى والتصوير متناسياً في اجوائها مرارة عيشه ، لكن وقته الضيق فرض عليه ان يقطع علاقــــته بالمجتمع وينطوي على نفسه في وحدة النساك ، فما ان سافرت والدته الى لبنان حتى وضع لنفسه منهجاً صارماً لحصه بما يلي :

و انا الآن تاجر او بالحري مدير لاشغال والدي اثناء تغيبه غير اني اعود الى البيت الساعة الخامسة وادرس ما استطعت من ذاك الوقت الى منتصف الليل . احياناً يأخذني النعس فأطلب النوم في غير وقته فأضطر ان استخدم الوسائط الفعالة المنبهة لتبقيني نشيطاً وصبوراً . ومن هذه الوسائط جربت القهوة ثم الشاي ثم التدخين مسع الحشيش ثم سلكت مسلك ابن سينا واخذت قليلا من الحرة (الوسكي) كل ليلة . غير ان هذه الاشياء اضرت بي اخيراً واثرت في أعصابي فصرت سريع التهيج مكثير الزعسل وكنت اذا ومجت احدى شقيقاتي او اخي وجاوبوني استشيط غضاً ، وبعد مدة تأملت في حالتي هذه وعرفت سبب تصرفي استشيط غضاً ، وبعد مدة تأملت في حالتي هذه وعرفت سبب تصرفي

فانقطعت عن هذه المنبهات واعتضت عنها بشرطة مبلولة في الماء اتعصب بها في الليل حينا اكون مشتغلا فتبقيني واعياً ونشيطاً.

« ... افتكر في امور كثيرة واعزم على تأليف الكتب وكتابة الرسالات . ولكن لحد الآن لم المم منها شيئاً . نعم يجب ان اثبت على عزمي . قد انتهيت مؤخراً من « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين البغل والحصان والحماد » ولكن سوف لا اطبعها قبل ان اصير قادراً على تصليح لغتها بنفسي ، فيجب على اذن ان المم الامور التالية في السنتين القادمتين من ١٩٠١ الى ١٩٠٠ .

درس اللغة العربية: بجث المطالب ومطالعة ابن خلدون ومراجعة حضارة الاسلام ونهج البلاغة والحريري والدرر والغرر ومطالعة تاريخ مصر لزيدان و تكميل قراءة التوراة .

Darwin's - Origin of specin and descent of man Huxley's. Man, s place in nature

Spencer's Data of Ethics
Allen's Lite of Darwin

Henri George 'Progress and Poverty Voltaire; Louis xiv

Victo Hugo , Morceuux choisis 1 وحاول امين ان يطبق هذا البرنامج بانتظام وثبات لا يتوانى ولا يسأم استمرار الجهد .

لكن هذا المنهج الدراسي لم يكن ليغني الاهيب الصغير عن التعبير. فلكم ألحت به حاجة الى الافصاح عما يجول في ذهنه فكتب كيفها اتفق له ، بالانكليزية وبالعربية، متكلا على صديقه عيسى الحوري في تصحيح عارته ٢.

本

ما سلم الريحاني قط بنظرية كبلنغ « الشرق شرق والغرب غرب ولن يجتمعا » بل اعتقد ان هذا القول قد يصح في المظاهر السطحية فقط ، وحاول هو ان يدحضه بطريقة عملية فيجعل من نفسه همزة وصل بين القطبين ينقل الى الغربيين دوحانية الشرق والى الشرقيين تقدمية الغرب فكان اول عمل اتاه في هذا الحقل نبذة كتبها عن تاريخ الثورة الفرنسية

١ من مذكرات أمين الريحاني في ١١ تموز سنة ١٩٠١ التي نشرها اخوه البرت
 في كتابه « امين الريحاني »

٣ كان يبعث ببعض مقالاته للنشر فترد اليه مع الشكر فيتألم ويثور ولا يبأس

تناولت اسباب نشوبها وخصائص محركيها ولا سيا فولتير وروسو وروبسبير ثم تطرقت الى نتائجها المعنوية . وقد ذيل هذا الكتيب بنقد لاذع لتوماس كارليل في كتابه عن تاريخ هذه الثورة اخذ عليه استرساله مع العاطفة وحكمه على الحوادث بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى الظروف التي نشأت عنها ، ورأى هذا المؤلف اقرب الى مجموعة قصائد مدح وفخر وهجاء ورثاء منه الى التاريخ الصحيح . وقد عزا الشطط الى مزاج الكاتب العصبي اسير السويداء والتخمة الذي يتجلى اثره في التهكم المقذع والازدراء السام .

نشرت «الهدى » هذا البحث سنة ١٩٠٢ قلم توج سوقه كما شاءالناش والمؤلف ان تووج ، ولا غرابة فان ما كتب في هذا الباب لا يحص ، ناهيك بأن المؤلف كان لا يزال مجهولا في اكثر الاوساط القارئة . على إن اميناً اظهر في باكورته تلك لباقة في التعليل وتفهاللواقع لا بأسبها الكنه اغفل نقاطاً جوهرية في معرض تحليله . فهو مثلا اذ يتحدث عين بواعث هذه الثورة الكبرى لا يذكر منها الا القريبة المباشرة وهي ، في عرفه ، خدمة الدين والنساء والاشراف . اما اثر القومية المستيقظة ، واما هم العهد القديم فلا يعيرهما اهتاماً ، فضلا عن انه عجز احياناً عن ضبط شعوره ونجريد نقده من التأثرات العاطفية فوقع في الحطأ الذي عابه على شعوره ونجريد نقده من التأثرات العاطفية فوقع في الحطأ الذي عابه على

كارليل اي انه كان في غير فصل من فصول الكتاب خطيباً شاعراً ا اكثر منه مؤرخاً .

ما كانت صدمة الكساد الذي لقيته الباكورة الريحانية لتثني صاحبها عن السير في طريقه فمضى يكتب « المحالفة الثلاثية » في جو داخلي عابق بالنقمة والامتعاض . وفي ذلك العهد اتاحت له ظروف حياته ان يعايش العمال الكادحين ويشعر شعورهم ويتألم معهم . رآهم في المنـــاجم تحت الارض يتعرضون لأفظع الميتات ، وفي العنابر يصلون الليل والنهــــار ويرهقون ذوانهم ، ورأى صغارهم يهجعون جياعاً على الطرق ، فتقززت نفسه وثار الانسان فيه فانبرى يكتب ناهجأ تهج وليم غاريسون ، مصوراً شقاءهم بأسلوب حي مؤثر ، مطالباً بانصافهم السريع ومندداً بتف\_اوت الطبقات والاجناس وظلم المحتكرين وآفات التمدن والمؤسس علىالطمع وحب المال والاستئثار ۽ .

انه تلميذ الثورة الفرنسية الباريدافع عـن مبادئها ، بقلبه وقلمه ووله ووجه ، وقد رآها في محيطه كلمات فارغة ترددها الالسن ولا تختلج بها النفوس .

#### المحالفة الثلاثية

دع التفلسف يا امـــين ! وقم بعمل مثمر يطعمك خبزاً . فانك لم

تهجر بلادك لتكتب وتتأمل ، بل لتجمع ثروة تذكر . ان مدن يملك دولاراً يساوي دولاراً ان علمت . ها كتابك الاول طبعته وانفقت عليه ما وفرته بعرق الجبين ، وعلقت عليه ما شئت من آمال . ماكانت نتيجته ? فهل انتصحت ?

كثيراً ما سمع امين مثل هذه العظة « البليغة » من انسبائه وجيرانه والغيارى على مصيره وعمرانه ، فاكتأبت نفسه وفارت انفته . وكثيراً ما شكا امره الى بعض خلانه الادباء فآسوه وشجعوه وذكروه بالعباقرة الفاشلين في اول العمر .

واخاله عزا كبوته هذه الى ضآلة العمل الفردي في ذلك الوسط الشاسع الاطراف فطلق برجه العاجي ثلاثاً ومضى يؤلف وبعض اخوانه المهاجر بن رابطة للتعاون في حقلي الادب والاجتماع اطلقوا عليها اسم «ندوة العشرة» ١.

في تلك الغضون تمت « المحــالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية بين الحصان والبغل والحمار» ، فنشرها سنة ١٩٠٣ مزينة ببعض صور هزلية من صنعه وتلوينه .

١ كان رئيسها الامير يوسف ابو اللمع

والمحالفة الثلاثية ، محـــاورة رمزية « لاهوتية » تجري على ألسن الحيوانات تبعاً لسنة ابن المقفع ولافونتين · ابطالها حصان وبغل وحمار وثور وثعلب خافوا انهيارسلطانهم امام نهضة العلم والاختراع والتجديد، فعقدوا مؤتمراً ، ولا كالمؤتمرات ، مجثوا فيه مشكلاتهم وتبادلواملاحظانهم، وشربوا الانخاب على شرف سيد الغـــاب . وقف الثعلب \_ المؤلف \_ فيهم خطياً ، فندد برجال الدين واعمالهم ونظرياتهم وعباهاتهم فبغا وطغا وتجبر وازدرى وأنذر وحذر ، فتألب الباقون عليه وكفروه وحاكموه واعدموه واليك محضر التنفيذ ،

الجلاد : ألا تريد ان تنكر اعتقادك ؟

الثعلب: اني اموت لأن الحيوانات نيام. اما انتم فستموتون لأنهم سيكونون ايقاظاً .

فألقى الجلاد به في النار قائلا : فلتكمل مشيئة الله .

في هذه الاثناء ظهر الاسد-المسيح-الذي شوه بعض الكهان اقواله وخاطب الحصان والبغل والحمار بقوله: « اني اطلب رحمة ولا ضعية » . وتلبدت السماء فانطلق بسيارته يسابق الربح ، « اما الحصان والحمال فذهبوا الى اسطبلهم منكسين وجوههم خاسئين ، وبينا هم سائرون ذات يوم على طريق السكة الحديدية اذ صفر قطار العلم القائد عربات البخار

والكهربائية والاختراء ال ومرعليهم جميعاً فسحقهم سحقاً وتطايرت رؤوسهم وبقايا اجسادهم في الجو وتشتت اعضاؤهم المتقطعة على طريسق التمدن الحديث » .

ذلك هو موجز الآراء الريحانية في « المحالفة الثلاثية » ، سكبها في قالب هزئي لاذع لغته الى العامية اقرب منها الى الفصحى . ولربما تعمد ذلك تعمداً لتكون قريبة المنال سريعة الانتقال .

حدت الامين الشاب القابل التأثر ، الفردي الشخصية ، عوامل عدة على اتباع هذا المسلك الوعر . منها انتقامه من الحمسلة الشعواء التي شنها الاكليروس عليه ومنها جزية لمعلميه الملحدين كفولتيروا ضرابه ومنها نهم حرون الى بلوغ الشهرة عن اي طريق . اما الافكاد التي حاول أن يعبر عنها فقتبس معظمها من ادب آخر القرن الخاضع لسيطرة دينات والعلومية وكادليل والالحادية ، اضف الى ذلك جو البيئة الامير كية المؤمن بأعاجيب العلوم .

ثار رجال الاكليروس لدى ظهور المحالفة الثلاثية ، فنددوا بأقوال الريحاني دفاعاً عن الايمان المسيحي الجريج، فانتصر له بعضهم واتخذكلامه دستوراً وخرج عليه البعض الاخر فكفره ووجه اليه! من الذم ما يوجه الى المارقين . الا ان هذه الحملة على الكتاب ومعه عززت رواجه في

الاميو كتين فطبع مرات واحرق مرات واصبح اسم الريحائي « الملحد » على كل لسان ·

الا ان صاحبنا رغم الشهرة السريعة التي دانت له ما انفك مضطرباً . فها صديقان حميان له : امين الغريب وعباس البجاني ، يهاجمانه كتابة ، ويدحضان آراءه فيحاول ان يبرر موقفه :

« كتبت قصة وليس كتاباً لاهوتياً ، لذلك لا اجادل في الدين . الثعلب في كتابي هو انا . والحمار هو انا والحصان هو انا والبغل هو انا . نعم انا اشخاص روايتي فيحق لي اذن ان افعل بهم ما اشاء . اذا حق لنيرون ان يجلس على سطحقصره ويضرب في المنجيرة ساعة كان عسكره يذبح المسيحيين فيحق لي ايضاً من اجل سروري فقط ان اضع في فم اشخاص روايتي ما اربد من الكلام وانتقم منهم بعد ذلك . فانا سررت في قتل الحمار والبغل والحصان . وللناقدين الاتقياء ان يقولواقولهم ».

الا ان نقمة الاكليروس والمهاجمين لم تكن لتوهن عزيمته وهو الذي عاهد نفسه على ان « يقول كلمته ويمشي » بل جددت نشاطه في سبيل ما اعتقده صواباً ، فنشر « المكاري والكاهن » سنة ١٩٠٤ يكيل فيه على خصومه سخطه ويقبح اعمال المتاجرين باسم الدين المستخفين

بأقوال المسبح مصوراً بقالب قصصي فولتيري كيف يحولون المحبة الى بغض والرحمة الى جور . وهذا الكتيب اقرب الى المقال منه الى الاقصوصة . اثر صبياني لا قيمة له كأنما ضاقت «المحالفة الثلاثية» عن تجسيم تورته على الاكليروس فأفرغ فيضه فيه .

انه نتاج الفتوة الجهيض لا يمثل شيئًا من اديب الغد .

\*

صرف الريحاني وقتاً طويلا في ترجمـــة الرباعيات ، يكتب وينقح ويراجع ثم يعرض على اخصائه حتى رضي عنها اخيراً وطبعها سنة ١٩٠٣ فقوبلت بالاعجاب والاستحسان في الاوساط الاميركية . قرظها عدد كبير من جرائدها وفضلها على رباعيات الخيام المترجمة وقد بلغ شغف الانسة الفنانة ليلي ستريكاند بعذوبة بعض مقطوعاتها ان وضعت لهاألحاناً موسيقية مطابقة في كتيب خاص .

ولا بدع أن يوفق الرمجاني في ترجمته تلك وقد كان بجيا أبا العلاء وهو يترجمه فلا ينقل صيغاً محنطة جافة من لغة الى لغة بل روح ذلك الثائر

١ الاول في كتيبه « ذاك الكتاب » والاخر في نشرته « رد على الحالفة الثلاثية » .

٢ - من رسالة الى عباس البجاني في ١٦ آب سنة ١٩٠٤

وقد تباورت خلال روحه الربحانية، فأبرز تلكالشخصية القوية تقريباً كما الاشعار من « لزوم ما لا يلزم » و « سقط الزند » و « ضوء السقط » ، وصدرها بمقدمة تناول فيها حياة المعري وتأثيره فقال : « أثار أبو العلاء حرب الاقلام على ما في عصره من شرور واباطيل فحمل على الخرافات والاحاديث الموضوعة ونادى بضرورة الخضوع لسلطان العقــل والثورة على الاستبداد والظلمرافعاً حرية الضمير وسمو النفس فوق مطامع الحكام مبيناً معايب الرؤساء دنيا وديناً » . وبعد ان افاض في هذا الصدد قابل بينه وبين عمر الحيام فاعتبر الشاعر الفارسي تلميذاً لابن المعرة اخذ عنه معانيه كما اخذ فولتير معظم آرائه الحرة في الدينءن هوبس ولوكوبايل. والمعري في نظره لقريطيوس الاسلام وديوجنس العرب وفولتـــيو المشرق .

اما الرباعيات المترجمة فقد بلغ عددها مئة وستاً وعشرين . بيتان في الاصل حولا بتصرف الى اربعة انكليزية نورد احداها هنا على سبيل المثال :

ونار ان نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ في رماد لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادي

Call thou the living and the will respond

But whom thou callest are as dead as Night

لكن هذه الترجمة ان حافظت على الفكرة كما رأبت فقد ابتعدت
عن الصورة ابتعاداً اقتضاه منطق العروض والقوافي وصعوبة النقل من
لغة شرقية الى لغة غربية . فترجمة الشعر شعراً تتطلب شيئاً من التضعية
اما في المبنى واما في المعنى واما في كليهما بعض الاحاييين ١ .

كما وطدت « المحالفة الثلاثية » شهرة الريحاني في الاوساط العربية في

Fan thou the firé then behold the light

Fan thou but ashes and bemoon by sight

الولايات المتحدة وطدت « اللزوميات » المترجمة شهرت، في الاوساط الناطقة بالانكليزية فأصبح بعض الصحف المعروفة ينشر له مثل «البوكمن» و « الفوروم » و « الهدى » و « مرآة الغرب » و « الاصلاح » فأيسرت حاله قليلا وصار قادراً على التخلي عن التجارة ، لا سيا وقدمات ابوه . في ذلك الزمان كان يقيم الامين تارة في نيويورك وطوراً في بروكلين في طابق عال زينت جدرانه صور غامبتا ووبستر وغلادستون . وكان يختلف الى المجتمعات البرجوازية والادبية التي قدرت فيه المحدث اللبق ، المادىء الاعصاب، الذي يشترك في كل بحث وحوار فيبدي رأيه في الازياء المادىء الاعصاب، الذي يشترك في كل بحث وحوار فيبدي رأيه في الازياء

۱ **اد**ب و فن

والسينا والتمثيل ويقول كلمته في الفن والسياسة والعلوم على خفة دوح ولدغة تهكم .

من الاندية التي كان يتودد اليها « نادي الثريا » فما طال به الامر حتى صار بين اعضائه فأحيوا له حفلة تكريمية ،توجوا رأسه، في نهايتها، باكليل من الغار .

انها الاقدار الساخرة تضحك للامين بعـــد عبوسها الطويل فيرمقها حذراً متيقظاً باسماً .

ما كان النشاط العقلي المحموم ليصرف امين عن صديقته الغرزوزية ، فقد كان على اتصال مستمر بها يقضي معها ساعات من صميم العمر و كتب بوحيها غير قصيدة وجدانية . وكان آنداك حنينه الى لبنان واهله يعصف به ويستبد فيرسله شعراً خافقاً بغصة الغريب وشوقه الى معانقة امه واختيه والتبرك بثلج صنين ونسهات الصباح على حافة الوادي . فجمع بعض هذا الشعر في ديوانه ﴿ المر والريحان ﴾ الذي جاء صورة حية عن صباه الرومنطيقي تكشف عن ثنايا نفسه المضطربة وقلبه الهائم .

إلا ان الاقدار التي بسمت له ساعة عادت تعبث به على غير رحمة . لقـــد فجعته الغرزوزية وهو في حمى الهوى فأحرقت كبده . ذهبت الى الامازون للتنزه فغرقت فيه ، فنقم الامين على الحياة ومن فيها وما

فيها واعتزل العالم حيناً حتى احس ان العزلة تخنق النفوس الجريحة فخرج عليها واخفى نقمته وراء بسمة شاحبة خوف شماتة الحلان وعمد الىالشعر عزاء البائسين ، مجمله شكواه . لكنه ما لبث ان مزق هذا الشعر المائع بوحي فعل ارادي حازم ولم تنج منه الا قصيدة واحدة نثرية حفظها على سبيل التذكار عنوانها « نفحة من لؤلؤة » نشرها او لا في جريدة « المنار » منه الا قاد جاء فيها :

« يا أيتها الساكنة قعر ذاك النهر القصي .

يا ايتها الراقدة تحت تلك الامواج الغريبة .

لا تجزعي ولا تخافي .

انت اميرة اللؤلؤ ، واللؤلؤ هناك يلاقيك مرحباً .

انت ملكة المرجان ، والمرجان يمجدك منشدا

يا ايتها الزنبقة المدفونة في مياه الغربة ، ليست الغربة بعدك بعيدة وليس القعر دائماً رمز السقوط والحزن والبلاء

انت في غرقك ترتفعين وفي هبوطك ترتقين

وقد كنت بعيدة عني فأدناك مني الموت فأصبحت حية في ذكر لا يموت»

١ صدرت في الطبعة الاخيرة من« هتاف الاودية » الذي تضمن كل ما في الريحانيات من شعر منثور

كأن المصائب لا تأتي فرادى . مرضت سعــــدى اخت الامـين بعد موت ابيه وموت الحبيبة ، وساءت صحته وتوترت اعصابـــــــــ فسئم العيش « بين شعب لا يعرف معنى السكينة والراحة ولا الجمال في بلاه حركتها دائمــــة متواصلة ، بين قوم يأكلون ماشين ويقرأون آكلين ويعدون النقود راكضين ، ويعبدون الاوثان قاءًين قاعــدين ، وحول وجهه الى مشرق الشمس ، ليقترب من جماله الشعري فينسى كروبه . « اذا كانت اكتشافات العلم ونتائجه تزيد الجسم نظافة وصحة وقوة وسعادة فينبوع الجمال النفسي الساحر الذي لا ينضب معينه في الشرق لا يزال بمنح النفس البشرية تلك الطمأنينة او التعزية التي تتوق دومـــأ اليها ۽ .

#### العودة الثانية

مر الامين بمصر في طريقه الى لبنان ، فقضى فيها شتاء كاملا زار في اثنائه الحديوي عباس حلمي واتصل بآبرز الادباء والزعماء السياسيين وباحثهم في احوال الشرق العربي الاجتماعية والسياسية والفكرية ووسائل النهوض بها. ولما اطل الربيع رجع الى واديه ، الى « الصومعة »ليستأنف عمله في وحدة النساك ، في غمرة الطبيعة المضياف . لقد شاقه ان ينطوي على نفسه القلقة فيصغي الى انينها في هدأة الغاب بعد ان ارهقته المصائب

ودوخه عجيج الآلة وخيبه تكالب الناس .

غير أنه حتى في الفريكة ، لم ينعم بالطمأنينة التي صبا اليها . لقــــد اشتدت دعاوة الاكليروس ضده منذ وصوله الى لبنان وكثرت عنـــه الاقاويل في اوساط الجبل: من زاعم انـــه قس بروتستانتي يستهدف تقويض الكثلكة ، ومن قائل انه دهري ينكر وجود الحالق ، ومـن معتقد أنه مشعوذ مفسد ينبغي أضطهاده . وقد الف المتهيجون لجنة دفاع عن الفضيلة والايمان ، وراحوا يحتجون الى اسقف الابرشية ، ويطلبون مساعدته في استئصال شأفة الكفر من بينهم . الحرم ! يا سيدنا الحرم ! لا يؤديه الا الحرم! فاستجاب سيادته طلبهم ، واصدر حرماً « يمنع فيه امين بن فارس بن انطون الربحاني القاطن في الفريكة من قبول الاسرار الكنسية ومن شركة المؤمنين ومخالطتهم . او بالحري يمنع المؤمنين من مخالطته » · .

وقد كان في تلك الايام شديد التمسك ، بقواعـــد التنسك ، يؤثر الوحدة الكلية على مخالطة الناس ، فجاء الحرم في وقته ومحله ، فكتبالى الاسقف يشكره عليه ، والى اهل الفريكة يعضهم على طاعة الاسقف فيعملون بما يوجبه الحرم عليهم ويتركونه وشأنه .

١ قلب لبنان ص ٨٠

و استمرت هذه الحال بضعة اشهر ، والناس بين محبذ ومنكر، وطائع وساخر ، فها نجم من الضور ما يذكر ، والحمد لله ، لا على المحروم ولا على جيرانه المؤمنين . على ان المحروم ظل موضوع احاديثهم ردحاً من الدهر ، وغدا كالثور الابلق ، يشار اليه بالبنان » .

اجل حرم امين نفسه عن الناس وعاش رهين قلمه وكتابه لا يترك صومعته اللا لينسل إلى الوادي ويجاور الأزهار والاطيار ، فينعشه اربح الزنبق والسوسن وتطربه زقزقة الحساسين وتؤنسه الحمائم وهي تأكل من يده . لقد علمه صديقاه المعري وثورو ان يستجير بعزلةالطبيعة ساعة يرهقه البشر فتمده بجنانها المنعش وتبدد سأمه .

وقد ذكر الامين بالخير ذلك العهد فقال « سنة صفت فيها الحياة وازدهت ، فانعكس في الروح نورها ، ونورت في النفسزهورها، ورده القلب صدى اصوات الوادي واغاريده ٢ . ولا غرو ألم يعد الى وطنه طالباً فيه راحة العقل والنفس والجسد هارباً من الحضارة ومتاعبها راغباً بالطبيعة وجمالها وبالتأمل ولذاته ! .

ا كان يزوره اصدقاؤه من بيروت ومندمشق وبينهم جرجي سرسق و جرجي بازوالمستشرق الالماني ديمولين ومحمد كرد على .

۲ القوميات الجزء الثاني ، ۲۸

### جهاد قوي

صار للأمين مركز مرموق في لبنان وسورية بعد ان تقدمته الشهرة الادبية اليهما تغذوها نقمة رجال الدين وانصارهم . فاذا كان لا بد من عمل ايجابي يقوم به فالظروف سانحة ملائمة . لقد شرع الشرق ، الراتع في خموله ، يفتح عينيه للنور . اليابان تسجل انتصاراً بارزاً على الروس في موقعة موكدن ، وحزب تركبا الف\_تاة ينمو باطراد ويهدد المالكين سعيداً بالزوال . وفي مصر ينفث محمد عبده ومصطفى كامل والمجددون من تلامذة الافغاني الحرية الحقة في نفوس النابتة . وفي بيروت ودمشق وبغداه والقدس احزاب سرية استقلالية تنتظم وتعمل بجد واستمراد . نار تحت الرماد تنتظر وقاداً يثيرها . فهيا الى الواجب النضالي يا امين ! صوت دوى في اذن ضميره فلباه باندفاع واذا هو يكتب ويخطب ويوجه ولا يمل .

« جرد نفسك ولو بضع ساعات عن اطهار الاجيال ، وتعال نحج معاً. ومنى وصلت الى كعبة الحقيقة ، وانت في مئزر الحج ، تجد هناك اثوابك الموروثة واثواباً اخرى جديدة الى جانبها فاما انك تعود الى ما كنت عليه فتلبس ما الفته وتسير في سبيلك ، واما انك تعتاض عنها بثوب

١ الريحانيات

ليس فخيا ولكنه من الرقع والفتوق سليم » .

هذا هو النداء الذي ارسله الامين عالياً جريئاً يدعو فيه بني قومه الى الانعتاق من جهل اعمى شل تقدمهم والى السير نحو حضارة جديدة خصبة قوامها الحرية الصحيحة والعلم والعدل .

ولما لم يكن في لبنان وسوريا ، في ذلك العهد ، وسط موجه دافسع يبذر الافكار التقدمية في مواسمها ليحصدها استقلالا ، راح يجمع شمل المتحررين من الادباء وكان على اتصال بهم من اميركة ، يوسمون خطة نظامية موحدة لعملهم الانقادي وبخلقون تياراً فكريأ لا تقف دونسه سدود الانهزاميين . ومــا هي ليلة وضحاها حتى اصبحت « الصومعة » محجة المثقفين والمفكرين يؤمها باستمرار عشرات الادباء ولا سيما ، داود مجـــاعص ، قسطنطين يني ، جرجي باز ، بترو باولي ، بشارة الخوري ( الاخطل الصغير ) اسكندر عازار ، مصطفى الغلاييني ، عبــد الرحمن سلام ، الياس خليل شديد ، فيلكس فارس ، محمــــــــد كرد علي وشبلي الملاط . شباب عطش الى التحرر يلتف حول الريحاني ويعالج معه امور الساعة وتطوراتها الممكنة في الجبل وبيروت وسائر الولايات ويتدارسون الوسائل الفعالة لترويض الشعب على الجهاد وقد نشأ على الاستسلام لسنة

المجهود الاقل. وكانوا اذا تفرقوا مضوا يكتبون في صحفهم ' ضاربين على وتر الكرامة الوطنية وحرية الانسان مجسمين ،بصورة نافرة الخطوط ذل العبودية وعواقب الحمول ، محرضين على التحرر الناجز في حقول المادة والذهن والروح .

انه انقلاب اجتماعي سياسي خطير يهيأ وراء الستار ، باشراف الامين وانها الخطوة الاولى مسين منهج اصلاحي شامل نــذر العمر في سبيل تحقيقه .

#### ناسك الفريكة

تعود امين البساطة الانيقة في حيات، وكان يعيش على الطريقة الاميركية المرحة اللامبالية ، يكتب في العزلة ويطالع حتى يسأم وحشته فيقوم بنزهات طويلة تبلغ به احياناً زحلة او الشويفات او عاليه يرافقه فيها كلبه الصغير دوق جون . وفي هذه المدن كان يزور اصحابه وببيت ليلته عندهم ليعود في الغداة الى الصومعة والقلم .

في رحلاته هذه كان يستلفت العامة ويثير فضولهم فيضربون في مسارح خيالهم ويستنبطون عنه الاقاويل . وكيف لا يبدو لهم غريباً في ذيه ،

<sup>،</sup> منها المنار ، والبرق ، والوطن ، ولسان الاتحاد والنصير .

مستهجناً في شكله ، ذلك المتأمرك الحليق الشاربين ، المصفف الشعر ومسدوله ، على غرار اوسكار وايلد ، الذي يرتدي قبعة مخماية ، وبنطلون وبالطو ابيضين يغطيهما رداء اسود كجبة الكاهن ، فيتحدثون بأمره على التنور والعين وفي باحات الكنائس ويضخمون الاساطير .

本

في ايام الشتاء ، عندم التلبد السهاء وتعربد الربح تقفر الفريكة وينقطع عن الأمين اصحابه مرغمين وتنوب عنهم رسائل المودة يطلعونه فيها على مجرى اعمالهم وتطور احوالهم فيشكون احياناً او يتألمون ، فيجيبهم مؤنباً معاتباً مشجعاً عابثاً بالمجاملات :

« كن صبوراً ولا تيأس · الغم لا ينفع والسويداء الله ضربة على النفس · · · ولا تنس ان تقرن الثقة بالنشاط والنشاط بالبشاشة .

« انا مثلك منيت بالسويداء وكاه يسومني اليأس في ماضي حياتي ، وكنت احفظ مذكرة اكتب فيها صباح كل يوم شكواي واذرف على صفحاتها دموعي ، ولكن ذلك قلما كان ينفعني لانني في تلك الايام لم افعل شيئاً . وما تمكنت من العمل الا بعد ان مزقت مذكراتي وامسكت نفسي عن الشكوى والتململ » .

ذلك هو جوابه على شكوى صديقه قسطنطين يني السائم ، الخــائو

العزيمة ، في غمرة احدى الازمات النفسية . انها عظة مستحبة ، لأنها خلو من التبجح وصادرة من القلب الى القلب .

وكان اذا اتم برنامجه العلمي اليومي ، ينحدر الى الوادي يعب انفاسه ويناجي الطبيعة التي علمه روسو ان يعود اليهاكلما اعوزه العزاء البريء . وهنالك فوق مضيق نهر الكلب ، حيث سجل رعمسيس وسنحريب واسرحدون انتصاراتهم خلل الدهور ، كان يقف خاشعاً متهيباً امام رهبة الغاب وعظمة التاريخ .

و في صباح احد الايام التي تقف حائرة بين الحريف والشتاء لبي دعوة الوادي . خرج من بيته بمعطف مشمع واخذ يقفز على الربى ويدب من تحت الصخور حتى وصل الى قلب الغاب . لقد هبط على عادته ، لاترويحاً للنفس، بل ابتغاء الالهام والفائدة . . . فانحدر الى الوادي ووقف عـ لى صخر يشرف عـــــلى النهر وتأمل فعل العواصف والانواء، فأحس بأن روحه انفصلت عن جسمه وطارت فوق الاشجار البلــيلة وطارت فوق الصخور الشهب في الصيف ، السود بعد الامطار . شعر آ نذاك بأن روح الوادي قد اتحدت به وان روحه قــــد اتحدت بالوادي . . صعد قليلا وتنشق هواء الاحراج فكادت نفسه تلقى صدى في حفيف الاوراق... وتعرقل في الصخر فسمع صوت رفرفة العصافير واذا بسرب كبير من السنونو يفر من امامه ففكر: « لو كان للطير ان يقرأ الافكار لماكان هذا السرب يفر الان من وجهي بل كان يجيئني مغرداً فأقبله ويقبلني ويسير بعدئذ كل منا في سبيله. ولكن اخواني البشر لم يعودوا الطير مثل هذا ، والسنونو لم يقرأ حتى اليوم شيئاً بما اكتبه . الى الان لا يعرفني وهل يلام على ذلك والانسان نفسه لم يزل يعجز عن فهم ما انطوى عليه الانسان » .

والروحيين والبوذيين ، في اولئك الذين يسكرهم الافيون او الايمان فيرتفعون بأحلامهم الى ما وراء الطبيعة او ينحدرون الى ما تحتها، فنهض فيرتفعون بأحلامهم الى ما وراء الطبيعة او ينحدرون الى ما تحتها، فنهض وقد تخدرت اعصابه من ارج الاشجار الندية ونظر بعين البصيرة الى الافق من خلال الاغصان فتنسم من الغيوم المتراكمة فيه خيراً وقال في نفسه الى البيت يا ولد! الى البيت! . . . عد الى عشك قبل ان تحاصرك الرياح وترسل عليك السحب شآبيبها ، فقبل نصيحة نفسه وانزوى في مغارة صغيرة يتأمل حكمة الطبيعة . . . والطبيعة لا تظلم بنيها مها اشتد غضها .

وحاصره المطر في كهفه الصغير ساعة من الزمن فأخذ يتأمل اثنــاء ذلك ما كان في داخله من آثار المخلوقات التي سكنته قبله فرأى ان الحية كانت تدخله لتغير فيه ثوبها ، والثعلب ليأكل فرخته والضبع ليفترس فيها مائدته . . . من له برفيق يشاطره ذلك المأوى الصغير المعتم البارد ، الجميل في فراشه! انه لا ينكر جمال العزلة لكن لا بد له معها من رفيق يقول له من وقت الى آخر ان العزلة جميلة فقد تاقت نفسه ، وهوبالقرب من الطبيعة ، الى نفس بشرية تؤاخيه .

« السير في شوارع المــدن الكبرى يذكر الانسان بالانسان وامــا السير في الوادي او الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم . الاول يدعو الى العمل والاخر الى التفكير والتأمل ... يشي المتنزه في شارع مـن شوارع باريس او نيويورك فيدهشه ازدحام الناس وتنقبض نفسه مــن الضجيج ويتبلبل فكره بمايراهوراء زجاج النوافذ الكبيرة من مصنوعات الانسان ومن التحف والعاديات . ويمشي ابن الطبيعة في الغــــاب بين الادغال وتحت الاشجـــار والادواح فتنعشه روائح الصنوبر ويشكره افيون الارض . فيخرج من بيت امه وهو شاعر بأنه يستحق ان تعامله الطبيعة معاملة احد اعضائها المتساوين امام الناموس الشامل الدائم الذي لا يبطل من اجل الاغنياء ولا يلغى من اجل الملوك والامراء ، ١ .

۱ الریجانیات ۱ س ۹ ه

ولما انتهى من تطوافه الشعري الحلولي في وادي الفريكة . عاد الى صومعته وكتب مقاله الشهير عنه وارسله الى صديقيه صروف ونمر في مصر فنشراه في « المقتطف » وبعثا اليه بخمس جنيهات اول كانت ربع دره عليه نتاج القلم العربي فدعا اصدقاءه الى فندق «لوكسه بوغ» في بيروت واقام لهم حفلة دعابة مرحة احياء لتلك البداية المغربة .

#### الخطيب

غير ان العزلة الرومنطيقية في احضان الطبيعة الرؤوم لم تدم طويلا اللامين . فقد كان عليه ان يوجه الشعور القومي المستيقظ لدى الناشئة المثقفة الشاعرة بقصورها الحضاري فحوصر في معقله وقيل له : « هات بما عندك » فقال متواضعاً: وماذا تبتغون من ناسك مفتون يتغزل بالعوسج والطيون ? ثم اعطاهم بما عنده فحمل على حصونهم الاجتاعية والسياسية والدينية . وحسب ان الحصون تتساقط الواحد بعد الآخر كأنها من كرتون واشعره الحاضرون بتصفيقهم انهم مسرورون بسقوطها وما صدقوا فيا اشعروه وما اصاب فيا حسب .

وكانت الخطبة الاولى في بيروت ، في جمعية شمس البر ، في كنيسة الاميركان ، في السنة الاخيرة من عهد عبد الجميد ، استهلها بمناجاة الشرق

١ القوميات ٢ص٦٩

منبت المعجزات ثم باطراء النورة الفرنسية التي « اطلقت ضمير الانسان من قيود الحرافة السوداء ، وعقله من قيود السلطة الصاء ، وقلبه من قيود الطاعة العمياء » ، ثم اسهب في تحديد الحرية الروحية واطنبوحلل وعلل ، فاذا الحرية الجوهرية الكاملة لا تسود ولا تنتشر الا اذا دعمها العلم والتحرر من التعصب والتقليد .

وتتالت من ثم خطبه في بيروت محشوة بالبارود يفجره على طغيان الاقطاعية والحنوع والتواكل والجهل ، مهداً سبيل البناء القويم . اشتدت رقابة السلطات على الحفلات والاجتماعات التي كان يدعى الريحاني الى الحطابة فيها و هده المسؤولون عنها بأشد العقاب ان سمحوا المتمرد بالقاء خطاب . ومن كان في عهد السلطان عبد الحميد ليجرؤ على تحدي التهديد! فكان من الطبيعي ان تصدف الاندية عن السياسة فتحصر نشاطها بالادب . كانت اذا طلبت الى الامين ان يتكلم استحلفته ان لا يورطها في هجاته الصاعقة فكان يعتذر عن التلبية لا سيا وانه كان غارقاً في التأليف .

« انا منهمك هذه الايام في كتاباتي الانكليزية وقد كتبت روايتين قصيرتين ونظمت عدة قصائد وباشرت نظم روايتي التمثيلية وقد انتهيت من جمع المقالات العربية ونقحتها وصححتها بجهدي ، وبعثت ايضاً الى

صديقنا محمد ( كرد علي ) بمقالة جديدة للمقتبس عنوأنها « ريخ سنموم ة و فحواها من العنوان مفهوم . وزد على هذا كله مشقة النحو وبليته وما اقاسيه بين الفراء والمبرد وابن مالك والاخفش . اي والله ، حينا تمر في مخيلتي الفاء السببية يغشاني صداع شديد . ولمـــا افتكر في الفرق بين المفعول به والمفعول فيه يجل المغص بي وفي ومعي وعلي فأود لو عفاني الدهر من لغة حمير ولغـة تميم ومذاهب البصريين والكوفيين . ولكن فوق كل بلية بلية . وهمي الآن ان انخلص منكم ومن الخطابة في الجمعية فكيف يمكن كتابة خطابي وانا مقيد من جهة بنظام جمعيتكم من جهة واخرى بارادة المضروبجي ( المراقب )وانت تعلم ان اكره شيء لدي الضغط والتقيد فلا يمكنني والحال هذه ان اقول شيئاً يلذ او يفيد . ان يا بوبعة »عملا برأي صديقنا قسطنطين فلا بد من ان احشر شيئاً من روحي بين الكلمتين واشفق ان يسقط الجمّل تحت اثقـال الجمل وتهرب البوبعة من الزوبعة فقل لي رأيك وخلصني من هذه المحنة » ١ .

انها طبيعة الملتزم الثائرة تأبى إلا الانطلاق البعيد في فضاء الحريـة اللامتناهي بل تأبى ان يكون بيانها لفظاً انيقاً من حبر وورق وحسب.

١ من رسالة الى جرجي باز وقد طلب اليه خطاباً لجمعية شمس البر .

## استراحة في مصر

في سنة ١٩٠٧ كان يوسف الريحاني يعمل تاجراً في مصر فخطر للامين ان يزور اخاه فيلتقي من جديد اعواناً له في ارض الكنانة يتشوفون الى النهضة والتحرر ويبدد في التنقل ، وتبدل الاجواء ، سأما بدأ يعشش في حيويته كالعنكبوت .

وحقق رغبته هذه وتنعم بالراحة التامةالتي حرمها حتى في صومعته ، فصر ف شهراً كاملا مسترخياً خلي البال :

« يتساءلون كيف اقضي ايامي هنا . فاني اظل في البيت الى الظهر . عندئذ اخرج فأجتمع بيوسف في المحل واتناول الطعام معه في الفنـــدق وبعد ذلك اصرف قدر نصف ساعة او ساعة في قهوة مــع جرائدي او كتابي واركيلتي . والقهواتية هنا يتقنون الاركيلة فيضعون في الرأس قدر نصف اوقية من التنبك ويعبونها في شكل متسع ويلفونها بورق من التنبك ايضاً حتى ان الرأس والتنبك فيها يشبهان وردة صفراء كبيرة » . واخاله ذكر،ولا بد، تلك التي حببت اليه بالامس تدخين الاركيلة على كرهه اياه ، وذكر معها فسحة من العمر كانت ترضيه فيها مـن الحياة حلمةمن فم امرأة تواكبها ابتسامة ونظرة ، فترحم عـلى الشباب الماتع . وخطرت له العودة الى نيويورك وألحت عليه ففكر في الأمر ثم

ابعده وتهيأ للرجوع الى لبنان .

## الريحاني المتعبد

كان لأمه في نفسه هوى ولا اعمق . فقلما عصيها في امر او رد لها طلباً . كانت تسأله احياناً ان يرافقها الى الكنيسة المجاورة، ايام الاعياد، فيلمي مشيئتها على غير تردد ، يسمع القداس وحتى يتلو رسائل القديس بولس ، ويقف خاشعاً متأملا امام مذبح العذراء ، فيتهامس الحاضرون فيا بينهم حائرين كيف ان « الهرطوقي » الاكبر ، منشىء « المحالفة الثلاثية » ، الثائر على الاكبروس والطقوس ، يدخل الهيكل المقدس وينحني اجلالا امام رب العباد .

والواقع ان اميناً لم يكن مسيحياً بمارساً ولم يكن دخوله الكنيسة الالجاملة امه العريقة في التقى ولكن بما لا ريب فيه هو ايمانه الاكيدبالله على طريقته ، وثقته بالحقائق الازلية ، ولكم سئل رأيه في الدين فأجاب رأساً : « لا دين لي اسماً ورسماً ولكني اعتقد بالله ابينا اجمعين واعتقد بالاخاء البشري » .

وبقبل الربيع ومعه الجمعة العظيمة فيعيش الامين بالذكرى ايام صباه ومجمله الحيال الى حقول الفتوة فيرى نفسه يركض حافياً في التـــلال المكسوة بالازهار يقطف طاقة ومجملها خاشعاً ليضعها عنـــــد

قدمي المصلوب .

ويعاوده الحنين الى الغاب فيجمع طاقة من الزهر يضعها صاغراً كسائر المؤمنين امام الصليب وهو يردد: « ان اكليل الشوك لاعظم من تيجان القياصرة و كأس المر لأطيب من خمرة الاكاسرة » . جئت الى الكنيسة لأردد اليوم مع الناس ذكر امير الناس ، بل ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب وبجلو بمر الشراب . .

لقد احتاج ان يردد ذكر الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب ذلك الذي كان العذاب رفيقه الدائم ، فالداء العصبي الذي انتاب بمناه كادت تتواتر عليه نوباته فتسلبه الهدوء وتحرمه النوم وتقعده عـــن كل عمل وتفكير و تأمل .

١ استمر هذا التفليد كل حياته ، في لبنان و خارجه ، و قد حكت الى اخته سعدى في ٢٧ آذار سنة ١٩٣٢ قال : « يوم الجمعة الحزينة زرت كنيسة الكادان الكاثو ليك في هذه المدينة وسمعت بطريرك الكادان يعظ وعظة هائلة استعذنا بالله منها ولكني حسب عادتي حضرت جنازة المسيح وان كانت باللغة السريانية .

٢ كان لا يهدأ إلا بالدلك وكانت امه تتولى امره . ولما ابتعد عن امه مضى الى انكلترة يفتش عـــن آلة للدلك تحل محل اليد فوجدها . ولا تزال هذه الالة محفوظة في متحف الامين في دار الريجاني بالفريكة .

#### العزلة السامة

عرفنا اميناً مجب العزلة ويسعى اليها . لكنه كان يريدها مختارة لا تفرض عليه ، شأنه في ذلك شأن امرسون وثورو . كان يحبها لأنها تقسح له التأمل والدرس والكتابة ويبغضها لأنها تجعله امام نفسه وجها لوجه فتسمعه انينها المهموس . كانت تتبح له العمل الفكري المستنفد فينسى بالتعب ألمه . غير ان العمل لا يدوم ورتابته تورث الملل حما وهذا ما عبر عنه صاحبنا في تلك الفترة :

« لقد شبعت مــن حياة الانفراد ، بل سئمتها و كرهتها وصرت اخشاها وألعنها بعض الاحيان . التخمة والسويداء والكابوس والبـــلاء وحديث البلداء وخبث الاتقياء ونأي الاحباء والفقر والشقاء والفشل في طلب العلاء كل ذلك ولا الخول. انا لم اخلقالخمول، انا لست من اولئك الفلاسفة الذين يأكلون ارواحهم اذا لم يجدوا سوى ذلك طعاماً لعقولهم . اراني الآن بعد ان شربت كل ما في كأس لبنان من الجمال الطبيعي ، وبعد أن هضمت كل ما قدم الي من لذيذ الحيال ، اراني واقفاً مثلذاك الهزبر الذي لاقاه بشر ، فاغرا فمي امام نفسي . فان لم اتزحزح قويبـــأ طالبًا في غير هذه الأرض طعاماً للروح وللقلب يؤول امري الىمالا تحمد

لقد شكا ذلك الذي كرز بالتجلد وثار على المكاره والعذاب. وأي المرىء لا يخرج عن طبيعته الرصينة متى طفح عليه كيل المرارة والضجر. فكيف لو لازمه الألم الجسدي ، فوق هذا ملازمة الظل ... ناهيك بالتناقض بين حياة الامس وقوامها حركة وتنوع واحاسيس جديدة وحياة اليوم الشبيهة بالأسر .

« ان دعا ابو العلاء نفسه رهين المحبسين حق لي ان ادعو نفسي رهين المحابيس : آلامي وعزلتي والشغل الذي من اجله حبست نفسي في بيتي هذا الصيف . . . في يدي ما يشغلني ثماني ساعات في النهار ولا انتهي من عملي حتى اكاد اسقط من التعب والألم العصبي » .

وخطرت له فكرة السفر الى غير ارض ، الى غير جو ، سعياً وراء الجديد . ولكن كيف يرحل عن هذه البلاد وبذوره بزغت فيها وبرعمت لكنها لما تثمر . اوليس من الضعف ان لا يسهم في الحصاد ?

ويقلع عن فكرة الرحيل ويوطد عزمه على الاستمرار في الجهاد فيخرج على تنسكه ويضاعف نشاطه الخطابي ويكثر من تنقلاته بينسوريا وفلسطين ومصر ويكثر من الحث على الانعتاق وان عز الثمن حتى اينع الشمر بانتصار توكيا الفتاة .

لكن اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ما كان إلا توطئة للاستقلال الحقيقي

في نظر الأمين . فالحرية السياسية ثانوية التأثير بالنسبة الى «عوامل الوراثة والفطرة والمعاشرة والتهذيب » وهذه العوامل مرهون امرها بتطور المستوى الثقافي الفني . ومن هناكان نداؤه الحاء : « ارفعوا اعلام الآداب في البلاد وشيدوا صروح التهذيب واسسوا معاهد للفنون » . وما كان ليقصر نشاطه على اللفظ المزخرف ، وهو الاديب الواقعي الملتزم ، بل جسده عملا بناء فأسس في بيروت جمعية الحياة الادبية ' ، متوخياً منها نشر المعرفة على اوسع مدى للقضاء على التعصب والجهل . متوخياً منها نشر المعرفة على اوسع مدى للقضاء على التعصب والجهل . وانصرف الى كتابة روايته « خالد » بالانكليزية ومسرحية عبد الحميد بالعربية .

### في طبريا

ان رأيت ذا حركة موصولة مرهقة فلا تحسبنه دائماً نها الى الحياة يتهافت على استثارها ، فلرب متاًلم سائم ثقل عليه جبه الحياة فاستعاذ بالنشاط المستمر يذهل في غمرته عن واقع لا يحتمل ، فالجهد الحيلاق المستديم الذي كان يبذله الريحاني ومشقات الاسفار التي كان يتجشمها ما

١ ضمت فيمن ضمت اسعد رستم ، الدكتور الياس عبيد ، شبلي الملاط ، بشارة
 الحوري ، قسطنطين نعمة ثابت ، جرجي باز .

كانت إلا ظاهرة طبيعية لنفسية ناءت تحت عبئها فسعت حرانة الى التهرب منه .

إلا ان مثل هذا التهرب ليس إلا ضرباً من الافيون الذي لا بد ان يورث ثفلا مربراً مجسه المتهرب ، بكل حدته ، ساعة يصحو من الحدر . مر الربحاني بساعات من و الصحوة ، الناهشة ، وقد تأصل الداء في اعصابه ، فتلوع وكاد يتفجر دموعاً ، فأقبل عليه المؤاسون مجففون من بلوائه . هذا ينصح له بأن لا ينزع عنه قميص الصوف حتى في احتدام القيظ وتلك تشير اليه ان يزور القديس دومط ويتبرك منه ، وذلك يهون عليه المصاب بتعداده مصائب الغير . ولم تكن مصيبته بيده اكثر وطأة عليه احياناً من بعض هذه النصائح والعظات .

لكن للطب كلمة مسموعة عند من آمن بقدرة العلم لا سيا اذا كان الطبيب شاعراً صديقاً كالدكتور نقولا فياض . . . فأخذ الريحاني برأي الطبيب الصديق الشاعر ومضى الى طبريا يستحم في مجيرتها . الا ان المياه المعدنية لم تنجح ، فعاد الامين الى صومعته يجر وراء ألمه خيبة جديدة . الويحانيات

ويغضي الامين عن شلل يده مؤملا نفسه بالدواء المبرى، في عيادات الغرب ومختبراته . لقد اقعده بالامس عــــن السفر واجب النضال في سبيل اعلان الدستور . اما اليوم وقد تحققت هذه الامنية فلماذا لايتأهب للرحيل .

وعول على السفر لكنه آلى على نفسه ان يصدر بادى، بدء خواطره في الحياة والكون والناس ، تلك الخواطر التي دونها ابان اقامته في لبنان ونشر بعضها في الصحف ، وما هي اسابيع حتى كان جزء آ «الريحانيات» الاولان في صدر المكتبات ،

## الرجوع الى اميركة

بعد ان قطف الريحاني ازاهر المجد الادبي في بلاده شد الرحال الى اوروبة فأميركة غير آبه بدموع امه التي احبها حباً فريداً والتي عود ظهره على يديها ساعة كانت تشتد عليه الازمة العصبية فيلجأ الى الدلك كوسيلة وحيدة لتنويم الألم.

وركب البحر في ربيع سنة ١٩١٠ تتنازعه اقطاب ثلاثة : لبنان وباديس ونيوبورك « في الاول روحي و في الثانية قلبي و في الثالثة قوتي وثباتي ه . وما هي ايام حتى حط في مرفا مرسيليا حيث كان صديقه النحات يوسف الحويك في استقباله ، فانتقلا معاً الى باديس والتقيا فيها صديقاً ثالثاً كان يدرس اصول التصوير في اكاديمية جوليان ويحي الليالي على نور سراج ضئيل بين بنات تموز نسوة الحيال ( ذكرى جبران ) .

في عاصمة الجمال قضى الريحاني والحويك وجبران ساعات من زهرة العمر ثم سبق الأمين رفيقيه الى لندن ساعياً وراء آلة للدلك تغنيه عن اصابع امه البعيدة عنه .

واجتمع الثالوث في لندن من جديد ، وقد وجد العليل فيهاضالته ، ففكروا في مشروعات خطيرة يتعاونون على تحقيقها بعد الرجوع. وكان في طليعة هذه المشروعات تأسيس دار للاوبرا في بيروت رسم جبرات مخططها الاول . وقد ظهرت فسيه قبتان ترمزان الى المسيحية والاسلام تتصافحان . فوقع المخطط كل من الثلاثة ، وكتب الربيحاني فوقه « اول كلمة من قصيدة لم تنظم . لفظت في لندن في غرة تموز سنة ١٩١٠ · ١ » ولم يكن جو لندن الضبابي ليرضي طويلا من ألف شمس لبنان فعاه جبران والحويك الى فرنسة ، وانتقل امين وحده الى نيويورك حاملا الى اخوانه المهاجرين شيئًا « من نفس الآلهة من لبنان » وحاملا الى المطابع مخطوطته الانكليزية كتاب «خالد» الذي انشأه في هدأة الفريكة ووضع جبران رسومه في باربس .

وفي اوائل سنة ١٩١١ اصدرت ثمركة « ددميد ، النيوبوركية رواية الامين فتلقتها الاوساط الراقية والصحف الكبرى بالتقدير المشجع .

١ رسائل الامين

## الريحاني والعرب

كان امين ولعاً بقراءة سير العظهاء ، فما وقعت يده على واحدة منها الا التهمها وفتش عن سواها . فاستوقفه ذات يوم كتاب « الابطال » لكادليل وفيه بجث حول امجاد العرب الغابرة ورسولهم الاكبر ، فاشتد اعجابه باخوانه الذبن كان يجهل عنهم كل شيء الا ما كان يسمعه ايام الطفولة ساعة كان يبكي لسبب ما : « هس جا البدوي والبدوي والاعرابي واحد اذا رامت الام بعبعاً تخوف به ولدها » .

وبلغ منه الاعجاب بالعرب حد التفكير بزيارة كل اقطارهم لدرس احوالهم عن قرب . فحا ان ولى صيف سنة ١٩١١ حتى حمل حقيبته واستقل الباخرة الى لبنان ليعد فيه عدة الرحلة .

في واديه الانيس اجتمع الى صديقه محمد كرد على وكاشفه بعزمه على القيام برحلة الى البادية ، على هجين يبعده عن كل مظلمة فهال صديقه وقال : نسير سوية . واتفقا يومئذ على ان يستعينا بتجار من نجدفي الشام يهدون لهما السبيل ويزودانها بكتب التوصية الى اهلهم وراء النفود . لكن الأيام عدوة الاحلام ، او انها لا تحقق منها غير ما كان ناضجاً في

٠ مقدمة ماوك العرب

القلوب . تأثرت السلطة الاثيمة محمد كردعلي فاضطر ألى ان يترك صاحبه وحده في الفريكة ويفر هارباً من سوريا ١ .

وارغم الريحاني على ارجاء رحلته الى ان تتهيأ له الاسباب ، فانزوى في صومعته من جديد يقرأ كل بحث يقع عليه عن العرب والبادية ولا على وكان اذا ارهقه العمل الفكري ترك ادبه وقصد الى خلانه ، ومعظمهم في بيروت ، ليقضي معهم ساعات طرب وسمر في جو حميم .

في مقهى من مقاهي الشاطى، البيروتي ، صغير وادع ، مبني بالحشب، مسقوف بالحصائر ، تلعب بين ركائزه الامواج ، الى جنب المربع الفخم الحافل في هذه الايام ببنات الفنون العليلة، هناك في تلك الزاوية المنخفضة من محلة الزيتونة ، كان الريحاني وصحبه يجلسون ساعة الغروب حول بطحات من العرق وصحيفات من الابازير ، تقدم بينها زجاجة « برنو ، لسيد الحلقة الشيخ اسكنذر العازار ٢ .

كان الربحاني حينئذ يقرأ كتابي رينان « حياة يسوع » و « شقيقتي

١ مقدمة ملوك العرب

٢ ماوك العرب ص ٣٤٠ عان يجتمع في ذلك المقهى الاخطل الصغير ، وشبلي الملاط، ويوسف تابت ، وجرجي سعد ، وبترو باولي ، ومحي الدين الغازي، و امين تقي الدين ، وجميل المعلوف .

هنريت » فذكر ما كان من فضلها على شقيقها وأدبه ، وقال أن قبرها في عمشيت جدير بأن يحج اليه الصالحون ، فقر الرأي على الحجة وضربوا لها موعداً . وأذا بهم بعد أيام على ضربح الاديبة يحييون ذكر أها الخمسينية بخشوع المؤمنين . وقد كان لهذه الزيارة اثر عميق في نفس تلميذ رينان عبر عنه في فصول مسهبة من « قلب لبنان » .

مي

في تلك السنة كانت مي زيادة تقضي فرصة الصيف في «كوخها الأخضر» في ضهور الشوير . سمعت بعودة الريحاني فشاقها ان تتعرف اليه ، وقد استحسنت نتاجه الحار في الريحانيات ورأت رأيه في الدعوة التحررية . وابدت الاديبة الناشئة رغبتها تلك الى صديق للأمين فحملها اليه ، واذا بها ( الامين وصديقه ) في رحاب « الكوخ » يتبادلان والأديبة حديث الشعر والصابة والجمال في لبنان .

ودعاالريحاني مياً الى الفريكة فلبت شاكرة ، واقبلت بعد ايام، مع ابيها وبعض الادباء ، تزور جانباً من الوادي متلمسة خطوط الصخور والأشجار متلمسة هيمنة النسائم وهـدير النهر المهرول الى حضن البحر ومتلمسة ايضاً ذلك السر الغريب يجذبها الى قرية متواضعة بعيدة .

ويأتي الحريف وترجع مي الى مصر وللفريكة منزلة لديها ولا اسمى. لقد وجد الأمين هو الآخر ، في نزيلة « الكوخ الأخضر » المثل الأعلى الذي تخيله للفتاة الشرقية الراقية : انوثة باهرة ، وذكاء وثقافة وذوق واتزان ، فانطبعت ملامحها البارزة في صميمه تمد شعوره ساعة يروقه الاستلهام .

ويتنسك الامين ، في صومعته و يدرس ويكتب ويتأمل كعادت ويستقبل الرفقاء المخلصين الذين كانوا يفدون اليه بأخبارهم ومشكلاتهم فيتشاورون ويتعاونون كأخلص الاخوان . وكان الى هذا لا يني يحاول تحقيق رحلته الى البادية فتهزأ به الاقددار وتحطم امانيه حتى طوحت به اخيراً وابعدته عن الوادي وعن البلاد العربية كلها فاذا به في آخر الصيف يركب البحر كسيراً الى العالم الجديد .

في اثناء الطريق عرّج الريحاني الى باريس ، وقد قيل له ان فيها مستوصفاً حديثاً للآلام العصبية ، فخاب فأله فيها وعاد بألم جديد ... لقد رشقته حسناء فرنسية بنظرة حمراء ايقظت في قلب به شعوداً حسبه قد توارى مع غرزوزيته الغريقة الى الابد ، فأرسل دمعة محرقة على النعيم الزائل .

« ما اجمل ايام الحب، يا حبيبة قلبي ، وما اقصوها! ما احلى سكرات الحب ، يا نور حياتي ، وما ابصر صاحبها فانه ليرى ما لا يواه النـاس . الحب ، يا لا يواه غير الآلهة . حبذا عيون الحب انظر فيها الى كلشيء

فاتريني الدنيا جنة ولا جنات اصحاب النبوات . حبذا ساعة يغفو عنها الزمان فتبقى لنا ونبقى لها مدى الدهر . ان يوم الحب في جبين الدهر كقوس قذح في كبد السماء ، او كزهر المسيح في نخاريب الصخور في لمنان .

... ما اجمل الحب وما أحسلاه من قلبك ، ومن روحك ، ومن جسدك . ما ألذه من عينك ، ومن يدك ، ومن صدرك ، ومن كل ذرة من جسمك السماوي . عدت في هذه الساعة الى غرفتي ، الغرفة التي قدسها حبنا فقبّلت الكرسي التي كنت تجلسين عليها ، وقبلت الارض التي وطئتيها حافية ، وقبّلت الفراش الذي ضمخته بطيب جسدك وبأريج نفسك . وغداً صباحاً اقبل الباب الذي كنت تطرقينه وتفتحينه بيدك الجميلة واهجر غرفة ملأناها حباً ونوراً وبخوراً » .

وقبل المتيم الباب الذي طرقته الحبيبة واغلقه على انفاسها الحرى، وعاد وحده الى نيويورك . . . .

#### غريب

« من الاشجار اذا نقلتها تموت ومنها ما تقف زمناً بنموها، وكالهاتتالم عندما تقتلعها من التربة التي الفتها . . . انا من تلك الاشجار وفي جذوع نفسي مئة جرح، . هذا ما همس به الأمين الى صديقه سليم دريان، في رسالة

م

حميمة من لندن يشكو غربته في بلد لم تألفها جذوره . وهل ألفت جذوره حقاً توبة لبنان ? لربما الفتها اكثر من ابة توبة . لكنه مع هذا ما انفك يشعر بغربة حتى في صميم الفريكة . . . انه احال المتمردين على القالب التوابي ، المشككين بأوهام الحياة ، لا يستقرون في أي مكان ، ولا يطمئنون الى اي شيء . انهم ابداً في توق مبرح الى جديد لا تبلى جدته ، انهم ابداً في حنين الى وطن ولا كسائر الاوطان .

سئم الأمين لبناف بالامس فتركه قــاصداً الى المجهول . ثم سئم نيويورك ولعن مدينة احشاؤها من حديد وفيها عقمه ، وصدرها من خشب وفيها سوسه ، وفمها من النحاس وعليها صداؤه ، وجبينها مــن رخام ، وفي جمالها جموده . لكأن العالم ، قديمه وجديده ، لا يتسع له فيفتش عن هنائه في عالم امثل اعياه وجوده فتصوره في خطوطه الكبرى وحاول ان يجسمه ويعيش فيه بما كتب ويكتب.

وكان هذا السأم خير حافز لصاحبنا على النتاج فحمله على ان ينصرف الى قلله طوال سنتين بجلة وطوراً بالعربية الانكليزية وطوراً بالعربية ١٠.

وهكذا بين ثورة وألم وحلم وخيبة وملل انقضت المرحلة الثانية من شباب أديبنا فتروضت اعصابه على احتال تقلبات الوجود وتمرست ويشته على التعبير عن مآسيه .

# في الحرب الكونية الاولى

اخذ الافق السياسي العالمي يتلبد ، شتاء سنة ١٩١٤ ، فتوقع الناس نشوب حرب بين ساعة وساعة ، فخاف الريحاني مغبة الامر ، وهو في نيويورك ، وقلق على مصير اهله فحار بين ان يستقدمهم اليه ، او ان يرجع اليهم . وطالت حيرته ، والحالة السياسية بين مد وجزر ، حتى اندلعت النار وغمر لهيبها العالم القديم ، فبقي امين في اميركة .

كان من الطبيعي ان لا يقف الاديب المائزم موقف المتفرج في غمرة ذلك الصراع . فأخذ جانب الحلفاء ، جانب العمل على تقويض السلطنة العثمانية وتحرير البلدان العربية من نيرها ، فجعل يكتب ويحاضر داعياً بني قومه الى الانخراط في صفوف الصامدين بوجه الطغيان الجرماني التركي ، وعاملا على تهيئة الرأي العام الاميركي لأن يتجه انجاهه .وكانت

القارة الاميركية عهد ذاك بعيدة عن جحيم القنابل نجري الحياة فيهابجراها الطبيعي السلمي ، الحفلات تقام في مواصمها ، والمعسارض تفتح
كعادتها كما لو ان الكارثة العالمية لم تكن ، وكان لسان فرنسيسكو حظ
كبير من مظاهر الجمال ، ففي صيف سنة ١٩١٥ نظم فيها معرض للرسم
واسع النطاق اسهمت فيه كثرة من الفنانين نالت جائزته الاولى فتاة
سكوتلاندية الاصل ، تقيم في ولاية كاليفورنيا ، تدعى برتا كايس ١ ،
فنشرت الصحف المعنية بالرسم صورة الفنانة الناشئة مقرظة معجبة .
استلفتت الريجاني صورة تلك الآنسة بقدر ما استلفته موهبتها فشاقه

استلفتت الريحاني صورة تلك الآنسة بقدر ما استلفته موهبتها فشاقه ان يجتمع اليها ويسر اليها ببعض اعجابه .

وشاء احد الاصدقاء الاميركيين ان لا يحرم اميناً متعة الاجتماع الى الفنانة فأهدى اليها كتاب « خالد » ودعاها الى حفلة دعي اليها مؤلف الرواية ... وتجقق اللهقاء الاول بين الرسامة والكاتب .

انس اللبناني المستوحد القلق الى تلك الحسناء الراقية بقدر ما انست هي اليه ونمت الالفة بينهما حتى تطورت الى حب .وفي تلك الغضون نشر

على اثر عودتها من شمالي افريقية حيث اقامت سنو ات ترسم و تدرس عادات تلك المنطقة .

الريحــاني « زنبقة الغور » ا فلم تنجح كرواية ، لكنها جاءت تمهيداً بارعاً لهذا اللون الذي خطا من بعد خطوات سريعة الى الامام .

سارت الحرب سيرها وازداد قلق الامين على اهله ومواطنيه ، وقد بلغه ان الجبل اللبناني المستقل خضع لسيطرة بني عثمان وتفشت فيه المجاعة والامراض ، فضاقت به الدنيا وانهكته الوساوس .

ويأبى الكاتب الملتزم ان يجوع بنو قومه ويبقى هو مكتوف اليدين ولكن مساذا يمكنه ان يعمل وهو ليس من اصحاب السلطة ليفرض ضريبة على اخوانه في المهجر! ... لكنه من اصحاب الرأي المسموع ، فدعاهم الى الصوم يوماً واحداً يدفعون ما يوفروك فيه اعانة للمنكوبين ٢.

بدأ بنفسه ، شأن كل رسول ، فصام عن الاكل والشرب والتدخين يومين كاملين . ما شعر بالجوع اول الامر ، لكنه احس بطنين في اذنه وبتجفف في لسانه وبشيء من المرارة في فمه . وبعد انقضاء اليوم الاول بدأ يشعر بالجوع والعطش وبشيء من الدوار .

١ طبعتها دار الغنون في نيويورك سنة ١٩١٧ وهي تزيد عن ٣٠٠ صفحة
 من الحجم الكبير .

۲ القومیات س ۸۸

كان في اصيل النهار يتمشى وصديقاً له في احد شوارع المدينة فمرا بمطعم عرضت في واجهته انواع من الخبز والكعك والحلوى ، فوقف امام الزجاج الحائل دونه وتلك الجنة ناسياً ذاته يتمثل في نفسه فقيراً جائعاً لا فلس في يده يخفف به سورة جوعه ، واخترقت عيناه الزجاج الى الطعام فتحلب اللعاب في فمه فغص بمر مذاقه .

وازداد جوعه في اليوم الثاني فاذا بفمه كالقطن جفافاً واذا بأذنيه تزدادان طنيناً على حد قوله ، وإذا برأسه جسم غريب ركب موقتاً بين كنفيه فقال في نفسه « قد عضك الجوع يا هذا ، فدنوت من اخوانك في الوطن » .

ونجح الامين في سعيه فجمع من المال قسطاً كبيراً ارسله الى الجياع من اخوانه المقيمين في اوائل سنة ١٩١٦ ° .

لكنما الحرب طالت فلج به الشوق الى جو حميم. فأين هي تلك الفنانة اللبقة لتخفف من سويدائه!

كانت تعنى بوضع قصص افلام فتؤم نيويورك من حين الى حين لتعرض نتاجها على شركات السينا وتنزل بعض ايام في فندق « الفن » قبل انتعود الى ولايتها .

١ كان من افعل اركان اللجنة السورية اللبنانية لاغاثة المنكوبين

استقصى امين كل هذه الاخبارعنها بدقة وترقب موعد قدومها الى الفندة فلما حلت فيه قصدها وتنفس قربها بانشراح لم يعرفه منذ عهد بعيد . زواج

شقراء هيفاء ، برتا ، زرقاء العينين ، نضرة الصبا سريعة الخماطر ، خفيفة الروح ، ملأت قلب الامين الشاكي الفراغ فصار اذا اتعمه الالم وارهقته مشقات الحياة يعود اليها فيجد لديها العذوبة والعزاء .

وتواتر اللقاء بينها طوال سنة فتمكن الحب منها واوحى الحالاه يب الزصين فكرة الزواج ... لقد جمعت برتا الى الانوثة الطرية خلقاً دضياً وفناً غنياً فلم لا يختارها رفيقة عمره ؟ سؤال طرحه غير مرة على نفسه فكان ارتياحها الظاهر خير جواب . وبينا هما يتساقيان الهوى ذات ليلة عرض عليها فكرته فاستصوبتها وقد ايقنت من تأمركه الناجز . وما دار في خلاها آنذاك ان الطبع قد يغلب التطبع فيه يوماً ! ... وتجسدت احلام الخيال واقعاً حسبه كل من امين وبرتا ما زال احلاماً واذا بها في احدى المحاكم المدنية في نيويورك ، يصغيان الى القاضي يتلو

\*

عقد الزواج وكأنها يستكشفان في عالم الغيب نجم حياتها الجديدة .

كانت الصحف الاميركية ظمأى الى الاخبار الوثيقة المصدر عـن

ساحات القتال في اوروبة فأو فدت مجلتا « البوكمن » و « الفوروم » اميناً وكان مجرر فيهما عهد ذاك ، الى الجبهة الغربية ليطلعهما بتفصيل ودقةعلى تطور الاوضاع الحربية فيــها . فصحب عروسه الى بــاريس حيث عرفته الى اصدقائها الفنانين وبينهم ماتيس وبيكاسو . وهناك توطدت علاقته بالاديبين اللبنانيين المناضلين خير الله خير الله وشكري غـــانم ، فأخبره هذا ذات يوم ، ان وزارة الحربية الفرنسية تؤلف للزحف عــلي سوريا فيلقاً يدعى « فيلق الشرق » وتحب ان يتطوع السوريون فيه ليكون لهم يد في تحرير بلادهم ١. وسأله هل الدعوة الى التطوع في اميركة تصادف قبولا فأجابه ان السوريين لا يلبون الدعوة الا اذا كانت رسمية او بالحري اذا تأكدوا ان الحكومة الفرنسية نفسها تدعوهم الىالتطوع . ولكن فرنسا لم تكن ، ذاك الحين ، في حالة تمكنها من الجهر بهــــذه الدعوة فأهملت . بعـــد شهر دخلت اميركة الحرب فتأسست ، لهـذه الغاية ، اللجنة السورية اللبنانية في باريس اداة وصل بين فرنسة وهؤ لاء ٢ وكان من اول اعمالها انهــــا بعثت وفداً الى اميركة الجنوبية ليدعو

١ القوميات ص ١٣٦

٢ لجنة تحرير سوريا ولينان ٠ وكان الريحاني من اعضائها البارزين٠

السوريين فيها الى التطوع » .

من فرنسا انتقل الامين وزوجته الى اسبانية حيث اراها امجادالعرب في بعض ما بقي من آثارهم في اشبيلية وغرناطة وقرطبة وكأنه يقول لها مفاخراً « اولئك اجدادي » . . . واذ خشي ان تنقطع المواصلات البحرية عبر الاطلسي ، بعد ان اشتركت الولايات المتحدة في الحرب ، هرول وقرينته الى نيوبورك. وهناك كلفته لجنة تحرير سوريا ولبنات بمهمة سياسية في المكسيك ترمي الى توحيد صفوف المغتربين لجانب الحلفاء ، فسافر الى مكسيكو حيث زوال اخوه يوسف التجارة ، وجعل يخطب في انديتها ويتصل بالسوريين واللبنانيين فيها يحرضهم على التطوع والتبرع في سبيل تحرير لبنان على يــــد فرنسا ... فلم يرق عمله هــــذا الحكومة المكسيكية ، وكانت تميل الى المانيا ، فأبعدته عن ارضها . فمضى الى الولايات المتحدة يستأنف فيها نشاطه السياسي وهو على اشد ما يكون حمية واخلاصاً .

كثيراً ما هفا الريحاني الى جو عائلي آمن في اميركة ٢ ينشيه مصاعب

١ اقام له اصدقاؤه الادباء حفلة تكريمية تكلم فيها جبران ، وعبد المسيح
 حداد ، ونعيمة وابو ماضي وعريضةو كاستفليس .

٢ بعد زواجه ترك امين نادي المؤلفين وحكن في شرقيالشارع السادس والثانين
 قم ٣٢٥

الزمان فها تحقق له ذلك الا بعد الزواج . فشعر ، لأول مرة، بالطمأنينة التي الفهـا في الفريكة في كنف امه واخته ، رغم اضطراب الاحوال العالمية ، فأعطى لقلمه مداه .

لقد تفهمت برتا مزاجه فطاوعته ، فعاشا رفيقين متفاهمين ينصر فان في النهار الى فنها ويتبادلان الرأي في السهرة حول ما اخرجاه . وكثيراً ما احتدم النقاش بينها حول رأي او مدرسة فكان الاقتناع المخلص خير حكم ، ولا غرو فأمين كان ناقداً تصويرياً معروفاً وبرتا اتقنت صناعة القلم في معالجة الاقاصيص . فكانت تلك المرحلة من اخصب مراحل العمر نتاجاً بالنسبة اليها .

في غمرة هذا الاستقرار المنزلي انجز امين «جهان » او «خارج الحريم» بالانكليزية ١ . فراجت الرواية رواجاً كبيراً في اوساط المغتربين ، الناقمة بومذاك على الاستبداد العثاني المتعطشة الى الثار .

وفي تلك السنة ٢ انتصرت الثورة اللينينية في روسيا وسيطر البلاشفة على الحكم فغدت الشيوعية في حقيقتها وتاريخها ونظرياتها حديث الناس في العالم فراح امين يدرس هذه الايديولوجية وانشأ ابجاثاً متسلسلة تناولتها

١ ترجمها عبد المسيح حداد الى العربية
 ٢) ١٩١٧

خلال العصور. وفي هـذه الفترة توطدت علاقته اكثر من ذي قبل بأدباء المهجر ولا سيا جبران ونعيمة وعبد المسيح حداد وعريضة، فكانو يجتمعون اكثر ما يجتمعون حول كأس من العرق في احـد المقاهي العربية او في صومعة جبران او في مكتب مجلة «السائح» فيتبادلون الرأي في نتاجهم وفي شؤون الادب عـامة ويتسامرون في جو ودي مرح.

## مع ولز

لما اعلنت الهدنة في خريف سنة ١٩١٨ انعقد في واشنطن مؤتمر دولي لتخفيض السلاح فاشترك فيه الريحاني فاجتمع بالكاتب الانكايزي صاحب النظرية المستقبلية ، ه . ج . ولز وكان يمثل جريدة نيويوركية كبرى ثم زاره في مسنزله ودار بينها حوار طريف حول مسألة الشرق والغرب اللذين لا يلتقيان الفيلسوف البريطاني في سياقه ان اوروب مسائرة الى الدمار انما لا يزال عندها اشياء يمكن ان يفيد الشرقيون منها ، وخير لهم ان يسرعوا . من هدده الاشياء العلوم التقنية التي لا يقوم الاستقلال الاقتصادي إلا باتقانها . اما مصيبة ابناء الشرق ، على حد قوله ، فهي استرسال ابنائه في الشعر .

وترك هذا الاجتماع اثره في نفس ولز فكتب مقـــالا اشار فيه الى

و المسلم السوري » الذي زّاره ! ٠٠٠ أ

ر في صباح يوم من كانون الثاني سنة ١٩١٩ اشتد برده كانت السيارات الجميلة تتقاطر في نيوبورك نحو البحر ، فتقف امام مرسى احدى البواخر الكبرى يخرج منها الاميركيون رجالا ونساء وقد جاؤوا مسن اقاصى الولايات المتحدة وأدناها ، وهم الى السياحة التي فطموا عنها مدة الحرب اشد شوقاً من الطير المسجون الى الفلاة ٢ في ذلـــك الصباح ودع امين نيويورك وبحجته غير محجة السياح ، فما تلفتت منه العين ولا القلب عندما ابحرت الباخرة « الادرياتيك » ومرت بتمثال الحرية . كان وحده ،ولم يخطر له انه سيلقى بين ذاك الرهط الفخم احداً يعرفه . واذا به ، وهو يسير الى غرفته، يلتقي رفيق المؤتمر وقد ارهقه التعب والضجر، فيستأنفان حديثها الفكري الفني ويتبادلان الرأي حول النقاط التي قد يمكن ان يلتقي الشرق والغرب عندها رغم أنف كبلنغ وأتباعه ... وقد كتب أمين غير مقال حلل فيه شخصية ولز الفذة واخلاقه ونظرياته في مستقبل العالم ومصر ، والاشتراكية وفي الدين والحب والزواج . واستند ولز

١ وجوه شرقية غربية ص ٨٤

۲ وجره شرقية غربية ص ۷۹

الى رأي الريحاني غير مرة في كتابه المعروف The shape of things الى رأي الريحاني غير مرة في كتابه المعروف

ولما عاد امين من سياحته في اوروبة الى نيوبورك اعد الفصول التي عقدها عن البلشفية ونشرها في كتاب مستقل في اوائل سنة ١٩٢٠ . كانت شهرته آنداك قد اتسعت في العالم الجديد فكتبت عنه كبريات الصحف مقرظة وطلب اليه بعضها ان يسهم في تحريرها ففعل ودر عليه قلمه مالا وفيراً انفقه عن سعة . لكن كل هذا لم يستأثر به دون وطنه لبنان فهاجه الجنين اليه وهزه الشوق الى التوفيق بين الشعر الدافق مسن واديه بالفريكة وبين تقنية الغرب الحسديثة ، فدار معظم مقالاته حول بعث الروح الشرقية في الحضارة المادية .

طال انقطاعه عن صحبه في لبنان حتى صاد يخاف ان يسأل عنهم فارب صديق توارى ولرب صديق نكب . « يتبادر الى ذهني ويتسارع الى قلبي اسماء كثيرين من الاصحاب والخلان ولكني صرت اخشى ان اسأل عن احد وصرت اشعر اني غريب في تلك الديار » ٢ .

۱ The descent of Bolshevism ( تحدر البلشفية ). ۲ من رسالة الى الاخطل الصغير وكان يحرر « البرق »

وتعاوده فكرة الرحلة الى البادية وقدتقلص ظل الاتراك عنهاوسهك الى خد ما ، اسباب التنقل . لكنه اصبح اليوم غيره في الامسوقداربت سنه على الاربعين والحمس وقيدته فوق هذا تبعة الزواج . . . . ترى اترافقه برتا في رحلته الغريبة العجيبة ! ام تهزأ به وتنعته بالخبل! . . . سؤال طرحه على نفسه فكان التردد الواجف جوابها فرجع الى التأليف الى ان يقرج الله .

## بين امين وجبران

كانت علاقة الربحاني بجبران ودية كما رأينا واستمرت كذلك طويلا رغم ان احدهما كاتب واقعي يعمل على الاصلاح في مكان معين وزمان معين والآخر شاعر خيالي ينشد المطلق خلال ضباب العصور . ولا غرو فكلاهما فنان في طبيعته ، شرقي في روحه ، يؤمن برفعة الروح على المادة ويشعر بغربة حيثا حل ، كلاهماسائم يفتش عن افيون يخدع به سأمه .

كانا يأكلان معاً في مقهى صغير في الجـــادة السادسة في نيويورك و ذلك الجحيم في قتامه وازدحامه وضجيجه » . ثم يعودان إما الى كوخ امين او الى صومعة جبران فيجلسان « على ديوان المجد المفقود ويلعنان كل ما في الوجود » . ثم يسكران بقال كتباه او قصيدة نظهاهافيرسلان

الابيات في مديح رب الكائنات ويبيعان نيويورك ثانية بخمسة وعشرين دولاراً وكلاهما يود و لو كان الكون كله طاقة من الازهار مجملها الى العرش الاعلى عرش الحب الحالد ، عرش الله » ١ .

كانا يجتمعان من حين الى حين في شبه صالة اهبية تديرها احـــدى الاميركيات المتاجرات فيتشاوران هنالك ويتطارحان الخواطر ماطاب لها ، الا ان هذه السيدة شاءت ، على ما يظهر ، ان تستغلالتنافس بينها فجعلت تختلق افتراءتلوافتراءحتى توتر الجوالودي بين قطبي الادب المهجري عهد ذاك فتباعدا على غير عداوة ظاهرة .

ويقول بعض المقربين من الرجلين ان اختلافها اساسه تعارض في التوجيه السياسي . بينا يؤكد غيرهم ان السبب الجوهري هو نزاع على كسب ثقة امرأة لبنانية ثوية راقية . اما مخايل نعيمة فيقول ان ثمة سرأ اؤتمن عليه لا يبوح به . وهذا ما يبور عدم اشتواك الريحاني في الرابطة القلمية وكان البحث قد جرى عامذاك لتأليفها .

### جارة الرؤيا وانشودة المتصوفين

ما انفكت فكرة الرحلة الى الجزيرة العربية تلح على الريحاني فيرجىء

۱ من رسالة الى نعيمة ردا على كتابه « جبران خليل جبران » وما جاءفيه
 عن مسلك صاحب « البين » التهتكي .

تحقيقها الى ان تتهيأ لها الاسباب . ومن هذه الاسباب كان اقناع برتا ، وهو امر ليس بالهين ، ومنها انصرافه الى تنقيح كتابيه بالانكليزيـــة « مسلك الرؤيا » و « انشودة المتصوفين » . ا

بيد أن هذين الكتابين ما عنما أن صدرا عن دار جمس هو أيت فرسخا شهرة الامين في الادب الانكليزي .

本

« من الاحلام ما يصبح جزءاً من حياة الانسان فيلا تنفك تزعجه وان شاخت فتحرضه وتستحثه حتى يسعى في تحقيقها ويحقق مسعاه » . ما ان نفض امين بده من كتابيه الانكليزيين « جيادة الرؤيا » و « انشودة المتصوفين » حتى داعبت خياله من جديد فكرة الرحلة الى البادية فأطلع زوجته عليها وسألها رأيها فاستهجنت كلامه . كيف لا وقد قرءاً معاً قبل اسابيع ما عاناه الاديب السكتلندي تشارلز دوطي في تنقله على ظهور الابل والحير في عنيزة والنفود . كان كلما حاول اقناعها بكرم العرب وسعة صدرهم نفرت منه والسخرية تغلف ابتسامتها .

لكن موقف برتا والمعارضين من الاصدقاء ماكان الاليزيد عزيمته صلابة . فمضى يطالع بنهم الشدكل كتاب وقع عليه عن العرب وبلادهم

<sup>1</sup> A Chant of Mystics. The Path of vision

من وقلب البلاد العربية وشرقها » لوليم بلغراف ، الى و سياحة في بلاد العرب » لجون بركهارت ، الى و الحبح الى المدينة ومكة و لوتشاره بوتن الى و التجوال في البلاد العربية » لتشارلز دوطي ، والى غمير بحث او خبر عن شؤون الجزيرة واهلها .

واتفق ان انبأته « مجلة سركيس » بأن رفيق جهاده قسطنطين يني ، الذي ابعدته عنه الحرب العظمى وحرمته الحباره ، هو في خدمة الحسين عاهل الحجاز فكتب اليه بسأله هل يأذن له بالزيارة ، وبانتظار الجواب جعل يقنع برتا بمرافقته الى البادية ثم الى لبنان « مورد الشعر » ولكن على غير طائل . لقد ابت ان تترك الولايات المتحدة، حيث مستذوقو فنها، لتقوم بسفرة خشيت ان لا تعود منها .

ورد جواب قسطنطين وفيه يقول: «اتفق ان وصل كتابك الى جلالة الملك الحسين في جدة وقرأته له كلمة كلمة وتباحثناملياً في الموضوع، وهو يرحب بك اذا حضرت. اما زبارتك الرياض وابن سعود فمستحيلة لاستحكام العداء بينه وبين الحجاز ... والسياحة يوافق ان تكون في فصل الشتاء ... اما الكعبة فلا يؤذن لك بزيارتها للاسباب المعروفة ، ونقل امين جواب صديقه الى بوتا واكد لها عزمه على السفر مها تكن العواقب فعارضته بعنف ، ولما اخفقت انصرفت عنه الى اقاربها العواقب فعارضته بعنف ، ولما اخفقت انصرفت عنه الى اقاربها

في كاليفورنيا ، فأرسل اليها كتابا يعلنها في مراره النهائي ويسألها ان تلحق به الى جزر الباليار حيث يستقلان الباخرة الى البصرة عن طريق الهند فاعتصمت بصمت ابي الهول .

ولما يئس من وصول جوابها مضى يجقق حلمه ، مضى يزور «امة تجلس في اطهارها على الأرض ، وتأكل التمر ، وتشرب الماء العكر ، وهي تتحدث في الشمم والاباء ، وفي الصدق والوفاء ، وفي الكرم والشجاعة ، وفي الحرية التي هي عندها الكنز الاكبر » ' . صفات حببت اليه الدهناء والنفود والمضارب في الأودية والشعاب .

بلغ الريحاني وادي النيل في ٢٧ كانون الناني سنة ١٩٢٢ فأرخى شادبيه ولبس الطربوش المصري وجعل يتصل بالاوساط السياسية والادبية ويطلع على توجيهها . فأثارت هذه الزيارة موسماً للحفالات التكريمية والاسواق الفكرية . وقد لمس الضيف الاديب تقدماً حثيثاً في الحياة الاجتاعية والثقافية شجعه على التفاؤل بمستقبل الشرق وشدد عزيمته على الاستمرار في نضاله الاصلاحي .

وقبل أن ينقضي الشهر ، انطلق الامين من القــــاهرة الى السويس

۱ القوميات ۲ ص ٦

ليبحر منها ألى جدة ، باب الجزيرة العربية، حاملا في صدره ايماناً عامراً باخوانه في البادية . وصل اليها في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٢ فاتصل بالحسين واخبره بقدومه فخف جلالته لاستقباله وهو يقول : « وهلا نقطع فرسخاً لنلاقي من قطع البحار وتجسم الاخطار في زيارتنا!»

وتتالت الاجتماعات بين الحسين والامين في الحجـــاز ودار معظمها حول السياسة العالمية وتطورانها بالنسبة الى العرب وحول مطامعالغرب في الجزيرة .

ساح الريحاني ورفيقاه فؤاد الخطيب وقسطنطين بني طوال اسبوع في الحجاز . فوافاه ذات يوم احد عبيد السلطان يحمل اليه كسوة عربية وخنجراً مكياً وقطعة مزركشة بالذهب من ستار الكعبة ، فلبس القميص البدوية ذات الاردان ثم العباءة ، ثم عقال الذهب، وتمنطق بالحنجر وراح يشكر لصاحب الجلالة هديته ولما رآه الملك في تلك الصورة بسط ذراعيه هاتفاً :

« يا حبيبي يا عيني » وضمه الىصدره وقبله فأحس امين من شدة تأثره بشيء غشي عينيه فباهر الى مكان المنديل من ثوبه الجديد فما وجد حتى الجيبة فيه ، فمسح الدمع بردنه فضحك جلالته وقال : « حقاً الله بدوي

الآن ۽ ١٠

لمس الحسين لدى الامين اخلاصاً كبيراً للعرب وقضاياهم واندفاعاً في خدمتهم فانفتح له مطمئناً وعرض عليه مشكلات بلاده ، رغم تحفظه الموروث ، واستشاره في حلها . فكان الريحاني يبدي آراءه بصراحة خشنة احيانا غير عابىء بجاملات القصور . فقدر العاهل الحجازي هذه الجرأة منه .

كثرت اقتراحات الامين بصدد توطيد السلم بين اسياد العرب تميداً لتعاونهم في سبيل نهضة عمرانية شاملة . وجاء بينها عقد معاهدة ثنائية مع الامام يحيى ، عاهل اليمن ، توطئة لمعاهدة تشمل ملوك الجزيرة كافة . وضي السلطان عن هذا الرأي شرط ان يعترف به الامام اولا كملك على العرب فبقي المشروع مشروعاً .

بعد ان اتم الرحالة المصلح مهمته لدى الحسين شاء ان يزور محكة المكرمة ، لكن رغبته هذه ، وحدها ، لم تتحقق ، عندئذ حول وجهه شطر اليمن ، هو في ثياب افرنجية وعقال مجمل جوازاً اميركياً ورفيقه قسطنطين في بزة ملازم في الجيش الحجازي مجمل جوازاً حجازياً ، ولما

١ ملوك العرب

وصلا الى عدن استقبلها على الرصيف ضابط انكليزي ورافقها الى مقر الحاكم المدني والعسكري الذي نصح لهما بأن يقلعا عن فكرتها «لأن السفر الى صنعاء محفوف بالاخطار خصوصاً اذا كان المسافرون مسيحيين، فاذا اذنا لكم باجتياز حدودنا لا نكون مسؤولين قطعاً عن حياتكم وسلامتكم دون تلك الحدود » . بيد ان اميناً وقسطنطين ، وقد ألف التعرض للاخطار ، ما توددا في مواصلة الطريق .

ابطأ وروه جواب الامام فخشي الزائران عاقبة الابطاء وتوجها ، في اثناء الانتظار، الى لحج يزوران سلطانها عبدالكريم فضل ويطلعان على شؤونها واحوال شعبها . وما هي ايام حتى بلغتها البرقية المنتظرة ترحب بالزيارة .

قبل انبلاج الفجر ركبا سيارة صغيرة وخرجا من لحج يبغيان الدكيم الني كانت يومنذ حدود تلك السلطنة شمالا وكانت الجلة قد سبقتها اليسها ومعها الحرس يركبون الهجن فوصلوا عند الغروب الى قصر السلطان على بن مانع سلطان الحواشب ، في المسيمير ، فباتا ليلتها في بلاطه وخرجا عند الصباح يقصدان الى صنعاء . وفي الطريق كانا سؤالا مجسما ، سؤالا حياً متحركاً يجيئهما اشياع الامام مادحين ، واعداؤه قادحين فضلا عن الفلاحين والجنود وقد عضهم البؤس فيجيئون شاكين ، متبرعين همساً بما للغيان من معلومات وثيقة .

وفي الثامن عشر من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ بلغا عاصمة اليمن بعد مسيرة اسبوعين كاملين وعندهما خيرات من اخبارها واخبار الزبود واستقبلها الامام يحيى بجفاوة واخذ يستكشفها الغاية البعيدة التي يرميان اليها ، فلما اطمأن الى حسن نيتهما والى رغبتهما الاكيدة في خدمة العرب وتوحيد كلمتهم ، انفتح اليهما واطلعهما على تصاميمه السياسية والعمرانية مستشيراً .

راح الامين يقنع الامام بفائدة عقد معاهدة مع الحسين وابن سعود تحقيقاً للاستقرار السياسي في بلاد العرب وقطعاً لدابر الدسائس الاجنبية وبفائدة فتح اليمن للتجارة الدولية ونشر الثقافة والصناعة الحديثة فيها . وبعد اخذ ورد طويلين اقتنع جلالته بضرورة عقد المعاهدة الولائية مع الحجاز فكتب الامين نصها بيده وارسل نسخة عنها الى الحسين مع رفيقه قسطنطين . وبقي وحده في اليمن يظلع على طبيعتها ومواردها وعادات اهلها ومستوى رقبهم الاجتماعي ليدون عنها مذكراته في المساء . اوليس « من فوائد السفر البطيء على ما فيه من مشقة وعناء أنـــه بمكن طالب انطباعاته عن تلك البلاد الى صديق حميم ٢ قال :

١ ملوك العرب ٢ الى داود بركات

« حضرة الامام يقضي بين الناس في الساحة كما كان يفعل الخلـفاء الراشدون . وفي البلد يتمشى القرن السابع وقد تجسد في ابناء هـــــذا الزمان ، زيود هذه الجبال . فتراه في اثوابهم المنيلة ، ومآكلهم المبسبسة وبيوتهم العالية وعاداتهم الغريبة ، ولغتهم الفصيحة العجيبة عندما تفهم ( سرباء = سير البرق ) ويقينهم البسيط ، وعقيدتهم القديمة ، وتقاليدهم وتعصبهم ونفورهم من الغريب . ترى القرن السابع حياً فيها كلها . حياً للنظر وحياً للسمع وحياً للبصيرة . نعم انهم لا يزالون يعتقدون في هذه الجبال بسطحية الأرض وألوهية الحسن والحسين ولا علم لهم بالاطباء » . وطالت اقامة الامين في صنعاء فلما عول على الرحيل عز عليه ان يترك الامام ولا مجفظ شيئاً من ملاعه ، غير الذكرى والخيال ، لأنــه حظر تصويره ، فاستعان بالقليل بما غنده من فن التصوير واغتنم الفرصة ذات ليلة كان في ديوانه وكان الامام يشتغل فدرس وجهه ورسم ، عندما عاد الى المنزل ، ما حفظ منه ، فجاء الرسم صادقاً بشهادة مـــن عر ف الامام ١٠

وانتقل الريحاني الى الحديدة فزار حاكمها ، السيد الادريسي وباحثه في عقد معاهدة رباعية بينهوبين الامام يحيى والحسين وابن سعود توطيداً

١ ملوك العرب \_ انها الصورة الوحيدة للامام

السلام وتدعيما لممالكهم فاستصوب الحاكم الرأي وأعلن عـــن عزمه على التنفيذ .

وعاد الى لحج فكتب منها الى السلطان عبد العزيز يستأذنه بزيارة بلاده شارحاً له غايات رحلته فأبطأ الجواب . ولما عيل صبر الامين مضى الى عدن واقام فيها « تحت سرادق القيظ في غ البركان بين اشباح الجدري والحمى ستة اسابيع ينتظر اذناً بالسفر الى العراق » ١ . فلما ورده الاذن بالسفر انتقل من عدن إلى عباي ليقصد منها الى البصرة .

وفي المدينة الهندية قضى اسبوع قلق احس خلاله بشبح الحيبة . كيف لا والسياسة الاجنبية والتعصب والمناخ السيء والامراض تواطأت كلها على عرقلة مسعاه . لكن ايمانه بالرسالة التي نذر نفسه لها ما كان ليستضعف امام الصعاب .

رأى الريحاني في بومباي مشهداً اثر في نفسه تأثيراً عميقاً ضاعف همته على الجهاد الرسولي ، رأى « الهندوس ، كبارهم وصغارهم ، اغنياءهم وفقراءهم ، رجالهم ونساءهم ، يلبسون الثياب البيضاء المصنوعة من القطن المزروع في الهند ، المغزول في الهند ، المنسوج في الهند ، المغزول في الهند ، المنسوج في الهند ، وما كان قبل

١ ملوك العرب

۲ القومیات۱ص۷۸۲

ذلك يعرف غير ماكان يقرأه في الصحف عن النهضة التي قام بها غاندي لحلاص بلاده من عبودية الاجانب .كان يظنها نهضة فكرية فقط تنحصر بالزعيم وبعض المتحمسين من اتباعه فألفاها نهضة جذرية نفذت الى صميم الشعب .

ومضى الامين الى العراق ومكث فيه نحواً من شهر اصابته الحمى خلاله مرات ثلاثاً . وهو في ذلك حمل البريد اليه جواب العاهلالسعودي بالترحاب ، فركب الباخرة الى البحرين ثم الى النفود واعتذر عن التأخير فأجاب السلطان عبد العزيز : « اما نحن فما ترددنا و لا ابطأنا في الجواب · وكيف نرد من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب . قالوا لنا انكاميركي جنت تبشر بالدين المسيحي في البلاد العربية ، وقـــالوا انك تمثل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات . وقالوا انك قادم من الحجاز وانك شريفي تسعى لتحقيق دعوة الشريف وقالوا غير ذلك ، فقلنا اذا كان في الرجل ما يضر فنحن نعرف كيف نتقيه ، واذا كان فيه ما ينفع فنعرف ايضاً كيف ننتفع ونحن نعلم يا حضرة الاستاذ بمهمتك بارك الله فيك » · • فأخبره الأمين بالمقاصد الثلاثة من رحلته قال : « وقـــد تم الاول

١ ملوك العرب

بمشاهدتكم ، وسيتم الثاني بما سأكتب ان شاء الله فيما شاهدت . اماالثالث فلا يتم إلا بمساعدة ابن سعود . واني متيقن يا مولاي ان الوحدة العربية لا تتحقق إلا باجتاع امراء العرب كلهم بالتعاون اولا والتفاهم . فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض اذا لم نقل في احتراب دائم » ١ .

جرت احاديث منوعة بينهاحول الرئيس ولسون واميركة ٢والقضية العربية والاتحاد فأدهشت بلاغة السلطان وحدة ذكائه الاديب اللبـناني فصوره باعجاب قال : « السلطان عبد العزيز طويل القامة، مفتول الساعد شديد العصب ، متناسق الاعضاء . وهو اسمر اللون ، اسود الشعر ، ذو لحية خفيفة مستديرة وشارب يقضبه على الطريقة الوهابية . له من السنين سبع واربعون . يلبس في الصيف اثواباً مـــن الكتان بيضاء ، و في ايام الشتاء تنانير من الجوخ تحت عباءة بنية . وهو ينتعل ويتطيب ويجمل عصا من الشوحط طويلة يستعين بها على الافصاح عن آرائه ، على تشكيل كلماته ، اذا صحت الاستعارة ، وتمكينها . ان له في الحديث غيرها من الاعوان . له انامل طويلة لدنة يشير بها في مواقف البلاغــة وله عينات

١ ملوك العرب.

٢ كان الريحاني اول من فتح العيون على المكانيات النفط الجبارة في بـلاد
 العرب .

عسليتان تنبران اماكن العطف واللطف ساعة الرضى وتضرمان في كلامه ساعة الغيظ نار الغضا وله فم هو كورق الورد في الحالة الاولى ، وفي الحالة الثانية كالحديد يتقاص فيشتد فهو اذ ذاك كالنصل حداً ومضاء . . . اجل ان ابن السعود ليتغير ساعة الغضب كل التغير فيذهب العطف من ناظريه ولون الورد من شفتيه ثم في افتراره يستحيل النور ناراً بيضاء فهو اذ ذاك رهيب » . .

اقام الريحاني في نجيد ستة اسابيع فكان السلطان يزوره في منزله كل ليلة فيباحثه في مواضيع شتى نجدية وعربية عدامة . لكن الامين ما اكتفى بالاتصال بابن سعود بل اجتمع ايضاً الى كل ذي شأت والى عامة الشعب يطلع على احوال كل منهم وشؤونه ونزعاته وشجونه . ولما استكمل جولته ودرسه ، ودع ابن سعوه حاملا اشد التفاؤل بنجاح سعيه ، وتوجه الى الكويت فأنزله حاكمها الشيخ احمد الجابر آل صباح في ضيافته أياماً وباحثه في علاقات المشيخة بالعراق ونجد ، وهناك مرس امين عن كثب تجارة اللؤلؤ وصناعة السفن . ثم انتقل الى البحرين وحل في قصر شيخها احمد بن عيسى فسأله هل يلبي دعوة الحسين الى اجماع وحل في قصر شيخها احمد بن عيسى فسأله هل يلبي دعوة الحسين الى اجماع

١ مارك العرب

في مكة لبحث شؤون العرب فأجاب: « اذا لبى سلطان نجد الدعوة فاننا نلبيها » . وفي استقصائه عن موارد الثروة في تلك المشيخة تحقق له ان مغاص اللؤلؤ هناك هو الاول من نوعه في العالم كما تحقق له ان ثمة ينابيع من الذهب الاسود دفينة في جميع البلدان التي زارها يجب ان تستثمر وينفق ديعها على تصنيع هذه الاقطار وتحضير اهلها وتثقيفهم .

واطمأن امين الى النتائج التي توصل اليها فتوجه الى عدن ليبحر منها الى العراق فلما وصل الى بمباي التي لا بد من التعريج عليها اذا كان السفر في احدى بواخر الهند لقي في القنصلية الاميركية كتاباً مـــن الديوان الملكي في بغداد ينطوي على الترحيب بمقدمه فسافر الى بلاد الرافدين للمرة الثانية والتعب يكاد يستنفد منه الحيوية ورباطة الجأش.

كان بجرد النظر الى ثار الحنظل يبرد من ظمأه يوم كان في البادية . . . كان يسير اياماً في تلك الفيافي الذهبية ،الحالية من كل اخضر، فلا يرى غير ازرقاق السهاء ينعكس في اصفرار الدهناء ، فيتوهج في العيون ، ويجف في الحياشيم واللهوات فيطلب الماء فيجده في القرب آسناً ، كريه الرائحة . كان يتناول الحنظلة الصفراء ويتأملها فيتخيل امامه لبنان ومن خلاله بستاناً من الليمون وسلسبيلا من المياه ، وظلالاً عطرة منعشة فيغمض

عينيه ويقيم فيها وهو على ظهر الذلول ، ساعات تنسيه البادية والظمأ ١ . في العراق

من بمباي الى البشرة ابجر الريحاني هائماً ، شارد اللب ، لا يعلم ما حل بزوجه وقد انقطعت عنه اخبارها منذ نيف وسنة ، ولا ما حل بأهله في الفريكة ، واخبارهم ما كانت تصل اليه الا نادراً .

وحالما بلغ البصرة بادر الى الوكالة البريطانية فيها واستعلم عن برتا فلم يعرف عنها شيئاً فازداد قلقه فاستدعى حوذياً «ساق جواده الاعرج يجر عربة مكسرة فيها بقية آمال مبعثرة تدعى الريحاني » ٢ . فلما انتهى الى عطة السكة الحديدية استقل القطار الى بغداد حيث زار عاهل العراق . اكرم فيصل الاول وفادة الامين ، وكان قد بلغه الكثير عن نشاطه في سبيل نهضة العرب ، وافسح له ان يحدثه بكل شأن وفي كل موضوع . وقد استأثرت القضية العربية بالأهم من الاحاديث فأبدى السيد الهاشمي رغبة صادقة في التعاون واقرانه اسياد العرب . فتنفس الامين ارتياحاً ونسي تعبه شأنه شأن المزارع يجني ثماراً رواها من ماء الصميم .

ما قصر الريحاني زيارته العراقية على البلاط الملكي بل وسع نطاقها فاذا هويتنقل بين وزير ومدير واديب وعامل ويستطلع ويلاحظ ويدون.

۱ و ۲ الریجانیات س ه ؛

تكاثرت حفلات التكريم التي نظمت على شرفه 1 حتى كادت ترهقه اكثر من الحدو على ظهور العيس في القفر الفسيسح .

وكان لا بد للرحلة الشاقــــة ان تنتهي فودع الامين العراق وسائر الاقطار العربية وهو يخاطبها باسم الحرية رائده الاول فيقول :

وهي الحرية جاءت تزور البلاه العربية وتزرع بذورها الطيبةالصفية. ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض، وبكت في تهامة بكاء اليائس. وضحكت ثم تأوهت في اليمن وجلست تستريح في العراق ... الحرية تخاطبكم ايها الاسياد ... ان في كلمة واحدة اليوم حياة هذه الامة والكلمة لكم فهل انتم بها ناطقون الكلمة (الاتحاد) فهل انتم في امر واحد متحدون ... ان حرمة الامة لا تعزز بغير العلم الصحيح، فهل من معاهد للعلم تشيدون؟ اذا كنتم تفعلون فاني الحرية اقيم بينكم وابشركم بستقبل مجيد وإلا فسأعود الى اقصى البلاد وألبس على بلادكم العزيزة الحداد ».

العلم، الحزب العراق التكريمية في دار المعلمين و قر الحزب العراق الحر، والمعلمين و قر الحزب العراق الحر، والمعلمي ، ومكتبة الهلال ، ومنتدى التهذيب. وكان من ابرر من تكلم فيها معروف الرصافي ، وجميل الزهاوي وقد جمع الخطب رفائيل بطي في كتاب مستقل وعلق عليها .

وقبل ان قغادر الامين العراق زار كربلاء والنجف ثم عداد الى الفريكة راضياً عن عمله بعد اربعة أشهر قضاها في تنقل مستمر ، وبحث محموم وتعب مرهق في خدمة العرب وتحقيقاً لنهضتهم واتحادهم . عاد من الحجاز الذي لا ترى زهرة فيه ولا اخضر في بواديه الى لبنان الذي لايزول اخضراره ولا تذبل ازهاره .

坎

قبل امين الريحاني زار كثيرون من السياسيين والجنود والعماء الغربيين بلاد العرب – فقد طاف بركهاردت وبورتون اطراف الحجاز وجال دوطي في انحاء الجزيرة الوسطى والغربية واجتاز فلبي الصحراء من خليج العجم الى البحر الاحمر ، انما قل من كانت له مثله الفرص المؤاتية للتعرف الصحيح بتلك البلاد واحوالها ٢ .

« لقد اختلفت غاية الامين كثيراً من غايات الاعلام الذين تقدموه في هذه الرحلة . فبلاد العرب لم تكن في عينه نجـــداً يجب استكشافه وملوكها تحفاً حية مختبئة وراء حواجز يتخطاها المغامرون ثم يعودون مباهين بما عرفوا من مجاهلها . بل كانت بلاد بشر احياء يتكلمون اللغة التي تكلمها منذ صغره ، بلاداً لم يكن يجهل تقاليدها ، بلاداً أراد ان

١ من رسالة إلى داود بركات في ٢٥ شباط سنة ١٩٢٥ .

٧ عن مجلة آسيا الاميركية المصورة .

تغذي مواردهــــا الحيوية مدنية عربية قوية عوض ان تعزز المنازعات والدسائس بين العشائر «حتى يفني بعضها بعضاً » ١ .

اراد الريحاني ، مـــن رحلته هذه ، ان يجمع شمل العرب الشتيت ويوحــد كلمتهم ، ويعــلي شأنهم ويحسر عــن وجوه اسيادهم وتلك الأقنعة الاسطورية التي حجبتهم عـن العيون » ٢ فراح يحكرز بالثقافة والمدنية والعمران والصلح والانفتاح على المعمور فكان خير رسول لنهضتهم الحديثة في جميع الحقول وافعل العاملين لها واخلصهم . كان رسول سلم في البلاد العربية يبشر بالعلم والتمدن لا بالوحدة العربية وحدود ابن عباس كما يفهمونها في الحجاز ٣ ، انه ما جاء ينصر جهلامسلحاً ولا ان يعزز تعصباً .

ويؤوب الامين بلحيته وعباءته ، مطمئناً ، الى واديه حامـــلا اثمن الهدايا والذكريات ليؤدي الى العالم حساباً ضافياً عن رحلته العجيبة.

## في الفريكة :

رجع الامين سالماً نشيطاً الى الفريكة ، الى حضن امه ، بعــد غيبة

عن اليزابت مككلم من مقال بعنوان « صوت عربي » .

۲ نظیر زیتون – عدد الرسالة الحاص بالریحانی آب و ایلول سنة ۲ ه ۹ ۰

٣ ملوك العرب .

ناهزت السنين العشر فاحتفى اصدقاؤه الادباء بعودته في حفلة تليق به أ افسحت له ان يفرغ في قصيدة نثرية فيض حنينه الى الوادي حيث رقد الشطر الاعز من ماضيه ٢ .

« في منعطف الوادي حيث اناخ ، وقلبه يحدثه بالرحيل ، سلم العرزال عليه ، ورحب السنونو به ، واستبشر الصنوبر بايابه ، وبادر الى البيت « فاذا هو كالطلل وحشة وسكوناً ، فها الشوك قد امتد الى اسكفة الباب ، وها العشب قد نبت خلال الاحجاد في الجدران ، بيت ابكم ، الحرة مفتوحة فيه تسمع الصوت ، ولا شق في الباب يحيى الراجع المشتاق » " .

إلا ان صوتاً خافتاً ناداه « تقبرني يا ابني » مـــا لبث ان بدل جوه القاتم كما يفعل السحر ، لقد مسحت امه دمع الفرح السخي عـــن عينيها وتطلعته وقبلته بلحمه ودمه هذه المرة وكانت قد يئست مـن ان تواه قبل الغروب ،

في الفريكة حاول صاحبنا ان ينقطع عن مشاغل الدنيافيعيش آمناً ،

١ اقيمت على مسرح الكورسال في بيروت وتكلم فيها داود نحول ، حسن الإسير ، نجلا إلى اللمع ، فيلكس فارس، ماري بني، وديع عقل ومعروف الرصافي،

٢ العود الى الوادي .

٣ هتاف الوادي ١١٥

خلي البال . ولكن ابن المفر ، فقد طوقته الوساوس من كل صوب ، حسبه الهم الذي خلفته برتا ، عروس آماله بالامس . ماذا حل بها في غيابه ولماذا انقطعت اخبارها عنه ? هل دهتها كارثة ما ؟ لابل هو كبرياه المرأة يطعن في صميمه فيعلن الانتقام . ألم يؤثر هو رسالته عليها فهجرها غير آبه لاعتراضها ? فلم لا تبادله المثل فتقطع معه كل صلة . . . انها لا بدفي اميركة منصر فة الى فنها تجتر غيظها عليه .

وجه اليها كتاباً قاسي اللهجة يعاتب فيه مرة ، ويؤنب مرة ، ويثور مرات فورد جواب اشد قسوة بعد حين ثم كانت بينها القطيعة. عقليتان مختلفتان تصطدمان : عقلية شرقي يأبى خروج المرأة على سلطة الرجل ، وعقلية غربية تدين بالمساواة المطلقة . فأمين وان قضى زهرة العمر في اميركة واقتبس جل عاداتها بقي محافظاً ١ ، فيا عني المرأة ، يويد خضوعها لارادة الزوج .

ا كتب الى سليم دريان من لندن في تموز سنة ١٩١٠ يقول «رأيت مواكب السيدات يسرن مطالبات بحقوقهن السياسية ، وجلهن من العوانس ، فقال احد المشاهدين : هذا موكب يفوق جنازة الملك ، وهو جنازة والله . هو جنازة المرأة في هذه البلاد . وعدت الى غرفتي ضاحكاً باكباً نادباً حظ الانثى التي تشقى في بيتها في هذه البلاد . ورددت قول الفيلسوف في في السياسة . ورددت قول الفيلسوف في نيتشه : « المرأة لغز لا يحله الا الحبلى ».

لجبأ الربحاني الى العزلة المطلقة محاولا ان يتناسى ماضيه ، بل شاء التنسك الرهباني على ما فيه من صرامة وقد قال يومئذ « في نيتي ان ادخل الدير بعد اسبوعين ترويضاً للروح ، والرهبان يسمونها رياضة روحية ، فأقيم هناك في عزلة الرهبان ، وفي ظل اعدائي الكهان ، واكوت ولو اسبوعاً واحداً مسيحياً تقياً فأحب اعدائي وآكل معهم وانام تحت سقفهم واصلي صلاتي في كنيستهم ، ا .

بيد ان الأمين ان لم يذهب إلى الدير، كما قال، فقد تنسك في صومعته وانقطع الى المذكرات التي دونها في رحلته يعيدالنظر فيها وينقح ويحتب ليخرجها فيا بعد اسفاراً حية ، فريدة الفائدة ، فذة الاسلوب .

كان ينهض عند بزوغ الفجر فيستحم بالماء البارد ثم يوتدي ملابسه كما لو كان على سفر ويجلس الى مكتبه الانيق التوتيب الذي تتوسطه جمجمة ناطقة بحقارة الانسان الى ان يسمع جرس الكنيسة المجاور يدعو المؤمنين الى الصلاة فيهرول الى والدته النائمة في غرفة ملاصقة ، وقد اثقل العمر سمعها، فيوقظها ويعود الى عمله حتى تدق الساعية الثامنة موعد ترويقته الحقيفة . وبعد استراحة قصيرة يعود الى مكتبه فيازمه حتى الغداء عندما

١ من رسالة الى سليم سركيس.

يتوسط ام امين وسعدى يداعبها وهوياكل ، هذا اذا خلت غرفة الطعام من الضيوف وقلما خلت ، وبعد الغداء كان يتمدد ساعة على كرسي من القش ، عريض الجانبين ، فوق شرفة تطل على الوادي قبالة صنين ، ثم يعود الى قلمه حتى الساعة الحامسة ساعة الشاي على الطريقة الاميركية وبعدها يشعل غليونه ويضي الى الاسطبل حاملا في جيبه قطعاً مى السكر الى « نورا » فيلقمها اياها ويسح بمنديله دمعها ثم يستوي على ظهرها ويخرج الى الغابة المجاورة ،

وبعد العشاء كان ينصرف الى تلاوة مـــا ورده من رسائل الادباء والخلان حتى اذا اعياه الجهد العقلي المستمر جعل يلعب « الباصرة » مع ام امين وسعدى او مجدثها بمغامراته .

حياة نظامية منضبطة هادئة ، في الظاهر ، ساعدته كثيراً في تحقيق مشروعاته الكتابية ، فما انقضى العام على رجوعه من الجزيرة حتى كان قد جاز شوطاً بعيداً في كتابه « ملوك العوب » ونقح عدداً من المقالات كان قد كتبها في لبنان وفي اميركة ونشرها في جزئين جديدين من « الريجانيات » .

١ كانت سعدى تستمهل الزائرين قبل الظهر وتستبقيهم على الغداء لان اميناً
 كان يكرس صباحه للنتاج الفكري .

كان الاقبال على قراءة هذين الجزئين عادياً ، رغم صفاء الديباجة فيها وخلو التراكيب من الرطانة . ذلك ان القارىء العربي الواعي بعد الحرب الكونية الاولى انفتح على الثقافة الغربية انفتاحاً نها فقويت فيه الروح النقددية واصبح صعب الاختيار لا يرضى إلا عدن النتاج الاصيل .

تقبل الامين الخيبة المفاجئة بصبر وانصرف الى « ملوك العرب » يشبعه درساً وتحليلا .

وصدر الكتاب المنتظر في مجلدين ضخمين تخللتها الخوارط والرسوم وقد اوضح المؤلف، في مقدمته، اهم الاسباب التي حدته على القــــيام برحلته الى البادية واعلن الاهداف التي رام تحقيقها.

انتشر هذا الكتاب بسرعة غريبة بين قراء العربية فترجم بعضه الى غير لغة وتناولته امهات الصحف بالنقد والتعليق والثناء . لقد ملأ فراغاً كبيراً في فجر النهضة العربية فأثار الهمم المتقاعسة موجهاً نحو التحرر الناجز وحسر عن الحقائق غشاء الوهم . وكأن هذا البحث ، على عظمه ، لم يستنفد مادة الأمين فانصرف الى اعداد غير بحوث في العربية

١ صدر سنة ١٩٢٤ الجزء الاول . ٣٩ صفحة والثاني ٢٤١٠

والانكليزية يودعها ما بقي في حافظته ومذكراته من خواطر وتأملات وصور واحاديث عن البلاد العربية في واقعها ومرتجاها .

#### جهد مستمر

كثيراً ما دعي الريحاني الى القاء محاضرات واحاديث عـــن رحلته الاخيرة في المنتديات والمعاهد في ييروت وفي غير مدينة فلبى ما وسعه ان يلبي و تكلم باعتزاز عن شعب احبه وبلاد توخى لها كل تقدم .

وناداه الواجب الى جده يوم استفحل النزاع بين الحجازيين والوهابيين فمضى يتوسط بين العاهلين صديقيه لحل الحصام . ولما عاهداه على تحقيق مسعاه رجع مطمئناً الى الفريكة يعد كتابه « نجد الحديث » .

كان عليه ان يدفع للشهرة جزيتها من وقته ، فكأي من اديب حج اليه من هذا القطر العربي او ذاك سائلا رأيه في مخطوطة او طالباً اليه ان يكتب توطئة لها تشجيعاً على النشر فأبدى وجهة نظره صرمجة لبقة لايقف عند اعتبار غير قيمة الاثر فأجفلت هذه الجرأة طواويس الادب وراقت صفوة الكتاب وهو في كلا الحالين يقول كلمته ويمشي .

تم « تاريخ نجد الحديث » فنشره سنة ١٩٢٧ وما كان اكبابه عليه ليصرفه عن التوجيه السياسي فقلما انتظمت حلقةرصينة الا وسمع فيها صوته سواء في سوريا او في فلسطين او في لبنان . انه ابداً في ركاب

\*

لكم آلم الامين التأخر الفاضح الذي كان يلمسه في المجتمع الشرقي . فالشرقيون ، مجكم طبيعتهم الداعية الى التأمل والاحلام ، وبجكم عقائدهم الدينية والفلسفية سلبيون ، متواكلون في اكثرهم ، تسوقهم الاقدار . لقد رآهم يعيشون على امجاد اسلافهم ، غافلين عن الحاضر والغد .

كان من البديمي ان يثور الامين وهو التقدمي المتغرب على هدفه العقلية . لقد آمن بقوة الارادة لكنه لم يعها محض رجاء بل عيشاً مسبقاً الموقائع وسعياً مستمراً لتحقيقها لذلك نادى بالعمل الابجابي وبالاتكال على النفس في معظم احاديثه ومحاوراته ، في تلك المرحلة ، وقد وضع عهد ذاك كتيباً اسماه « النكبات » \ من وحي هذا الواقع اثار سخط المتمسكين بالاوهام المعنكبة ، القانعين بالصدى ، فهاجموا الريحاني ونسبوا اليه التغرض واتهموه بخدمة الاجانب على حساب مواطنيه . الا ان الامين ما كان ليابه لهذه الشائعات فرصيده للتاريخ اقوى من ان تزعزعه الشائعات والتهم.

١ لربما كان ردا على « خطط الشام » لحمد كرد على .

## حنين الى نيويورك :

طال غياب الريحاني عن الولايات المتحدة وفيها رهط من الرفاق والاحباب والقراء فضلا عن الاجواء الثقافية والفنية العزيزة عليه ،فعزم على الرجوع اليها . كأنما ألانسان كالعشبة تمتد جذوره في كل تربة يطيب له فيها المناخ .

وعاد السندباد اللبناني بحمل في جعبته تصاميم سلسلة كتب عن رحلته الى البادية يعرف فيها العالم تعريفاً صحيحاً بالعرب وبلادهم وحقيقة وضعهم.

وفي الطريق عرج الى لندن ونشر فيها كتابـــه « ابن سعود وشعبه وبلاده» ( وكتب عدداً من المقالات في « التايس » حول المشكلة اليمنية النجدية .

بعد وصوله الى نيويورك طبع كتاب «حول الشواطىء العربية » ضمنه انطباعاته عن زيارته للحجاز وعسير والكويت والبحرين وعـــدن وعمان ، وكتاباً آخر عنوانه « الصحراء العربية » وصف فيه رحلته من صنعاء الى الحديدة .

١ بالانكليزية .

ما عرف الامين ، كل حياته ، للحقد معنى . كان يئور ان مس في كرامته او مبادئه ثم لا يلبث ان يهدأ وقد تناسى كل شيء . فالقلوب الكبيرة لا تحسن ضيافة الضغينة . . .

مر امام المنزل القديم حيث قضى سنوات وزوجه وترك بعضاً مــن وجوده فخطرت له برتا مشيقة ، رشيقة ، ترفل بثوبها الارجواني كما رآها اول مرة فازدحمت احداث ماضيه في ذاكرته كالهـــالة حول شخصها فساوره وجوم وجعل يهمس في اذن نفسه : « هنــــــا جلست تسامرني وتربني بعض رسومها ، وهنــاك في الحديقة كانت تقطف لي ازاهر الربيع ، وهنالك كانت تتأمل وتستوحي مادة فنها . وشاقه الرجوع الى العيش الهادىء في كنف من احب ولا سيا بعد انزال سبب النفور، فأبدى رغبته الى صديق حميم ١ ، حاول عبثاً ان مجققها له . لقد ابت برتا ان تعود الى الحظيرة . . . فقيد الزواج ارهقها ، وجرح كبرياتها لم يندمل. كان قلبها ، على ما يظهر ، كالزجاج الذي لا يجبر كسره حتى في بلاد الغرائب ٠٠٠ الا انها قبلت ان تكون صديقة لزوجها كما لو لم يوبط بينهما

١ ابراهيم حتي

اي عقد . وتم بالفعل الطلاق المدني بينهما وعاشا رفيقين يجمع بينهما وشج الفن ا وتفرق بينهما العقلية في عمق اعماقها . وقد عبر عن هذا الاختلاف في رسالة وجهها الى صديقه فيلكس فارس جاء فيها :

« زوجتي اميركية احبها واعتبرها واعزها جيداً ، ولكني تزوجتها ولم اتزوج قومها ولا بلادهــــا . وهي كذلك تحبني وتعتبرني وتعزني ولكنها لم تتزوج قومي ولا بلادي » .

ونزل الامين « العازب » في نادي المؤلفين حيث عاش في جو متحرد من تبعات الحياة لاءم اعصابه المتعبة وانساه وحشته الى حد ما . فوثق اتصاله بالحركة الفكرية في العالم وارخى لقلمه العنان .

### فلسطين

حوالي سنة ١٩٣٠ اخذت القضية الفلسطينية تطرح جدياً على بساط البحث الصهيونيون يصرون على تحقيق وعـــد بلفور والعرب يأبون التخلي عن « ارض الميعاد » أياً كان الثمن ، والدول الكبرى وقـــد الممتها المصالح عن رؤية الحق الصراح ، لا تأبه للجريمة الكبرى تتهيأ في وضح النهار ...

١ لم تنجز معاملاته القانونية الاسنة ١٩٣٩ وفد جاءت برتا الى لبنان سنة ١٩٩٣ وزارت آل الريحاني في الفريكة وترحت على الامين فوق قبره.

اما الريحاني الاديب الملتزم ، فما اكتفى بالمراثي الرومنطيقيةوالتفجع قبل حلول المصيبة ، بل مضى يعمل على اجتناب الشر ، يبين تارة حق العرب الاكيد بموطن من اغلى مواطنهم ،و ظهر تارة مدى خطرالتوسع الصهيوني في الشرقين الادنى والاوسط . وقد طاف في الولايات المتحدة رسولا خطيباً لا يكل . وفي هذه الغضون كتب اليه الحاج امين الحسيني المفتي الاكبر ، يسأله ان يشترك في الوفـــد الذاهب الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فاعتذر بقوله: « عدت اليوم من سياحتي الخطابية . شكر لكم ثقتكم بانتدابي لعضوية الوفد الفلسطيني . كنت اود ان اقبل فيما لو تمكنت من القيام بنفقات السفر ، الا اني غير قادر بهذه الايام وانا الا اقبل مالاً من احزاب سياسية جزاء خدماتي للعرب». إلاانه رافقمن بعيد قريب مراحل المفاوضات واعلن رأيه غير مرة حول تطورانها في امهات الصحف الاميركية .

غير أن القضية الفلسطينية، على خطورتها، ما أنست الريحاني أصدقاءه من لبنانيين وأمير كيين فكان يعود اليهم مثقلابالمتاعب شأنه شأن المركب الشراعي في الخضم يفتش عن مرفأ .

ولرب مرفأ آمن كمنت فيه عاصفة، فالجو الهادى، ،جو الجالية اللبنانية، الذي كان يلوذ به الريحاني تعكر في ربيع سنة ١٩٣١ فجبران ،القطب

الذي كان يشيع الانس حوله ، عليل محتضر .

هرع الامين الى مستشفى سان فنسنت يعود صديقه بالامس وغم غيمة الفتور التي اجتاحت علاقتها ، فألفى البريق في ناظريه قد خبا والابتسامة قد تقلصت على غير عودة فوقف مع نفر من صحب جبران يتقبل التعازي .

واضطرته المشكلة الفلسطينية الى الرجوع الىالشرق ليدرس عناصرها عن كثب ويتصل بجمهرة العاملين لها فاحتفل الحلف السوري في بروكان بوداعه واهدى اليه كأساً من الفضة وجائزة نقدية فقبل الكأس ورفض المال وركب البحر الى لبنان وكان رفات صاحب « النبي » قد وصل الى بيروت في ٢١ آب سنة ١٩٣١ فألقى قصيدة ناجى في إلى الم وراء البحار ٠٠٠ وظل يضطرب لرنات الذي حمل الارث القديم الى ما وراء البحار ٠٠٠ وظلل يضطرب لرنات العود وغنات القصب » . وعاهده بأنه « من ظلال الصنوبر الذي سيغمر ضريحه في الفريكة سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، الى ضريحه في ظلال الارز » .

١ رافقه الحوم البرت في تلك الزيارة .

ماكان امين المشبع بروح الثورة الفرنسية ليرضى بقيد الانتداب يجد من حرية بني قومه ومن انطلاقهم الخلاق . لقد عمل بالامس البعيد على تحطيم النير العثاني يوم كانت الاعناق ارخص السلع فما خشي عاقبة . اتراه يخشى الاضطهاد في عهد الانتداب ? انه لايكره فرنسا وهو تلميذ ثورتها وبعض مفكريها ، وهو من دعا الى التطوع في جيشها لمحاربة الاتراك في الحرب الكونية الاولى، لكنه كره اساليب بعض ممثليها ابان الانتداب وجاهر بكرهه . حذر من مغبة هذه المجاهرة فما ارعوى . ولمــــا دعته جمعية التضامن الادبي في بيروت للكلام ربيع سنة ١٩٣٣ ، القى كلمة قنبلة بجضور ممثل المفوضالسامي قارن فيها بين اول وقفة وقفها فيبيروت ايام عبد الحميد وبين وقفته تلك في عهد ديمارتيل السعيد فلم يجــــد تغيراً يذكر بين الوقفتين الا اذا حسب الرجوع إلى الوراء تغيراً رغم الانقلابات الخطيرة في اوضاع العالم واحواله · « فمن عهدعبد الحميد قد انتقلنا الىعهد البعل . من ظلم ظاهر الى ظلم خفي . من ظلم مختل الى ظلم منظم . من ظلم يحمل النبوت والكرباج فيتقيها النـــاس الى ظلم مجمل الدساتـير والمعاهدات » .

وما كاد يخرج من بوابة « التياترو الكبير » بعد هذه الخطبة النارية ،

حتى أعتقله رجال الامن وصدرت الاوامر بنفيه عن لبنان فحمل حقيبته وفيها تصميم « فيصل الاول » وحل ضيفاً على الملك غازي في بغــداد . وقبل الرحيل وجه كتاباً الى جريدة « النداء » ودع فيه الاصحاب وغير الاصحاب جاء فيه « ما احزنني مما كان لهذه الخطبة من النتائج الاجتماعية والسياسية غير غيرة بعض الناس ، اخواني في هذه البلاد ، على ما يظنونه مصلحة الفرنسيين وكرامتهم فصحت فيهم الكامة الفرنسية المـــاثورة : التأويل والتشويه لما قلت الى الوشيان والاغراء فقالوا اني فضلت عهد عبد الحميد على العهد الحاضر ( والمقابلة بين العهدين غير التفضيل ) وقالوا اني عدو الفرنسيين والانتداب وعدوالسلطة المحترمة كلها . وما انا بعد عدو لغير الجهل والخوف والتعصب في الناس ولغير الظلم والاستئثار والفساد في السيادات والاحكام ، انما انا عدو اعمال لا عدو رجال . . . انه يجزنني والله أن يكون بين هؤلاء من الاسياد والصعاليك من لا يهمهم غير خبز يومهم وأن جبل هذا الخبز بالتزلق والذل والخداع وبما أن داءهم في قلوبهم كما هو في جيوبهم فاني اسدل على ذكرهم ستار الشفقة والغفران » . واقام في العراق مكرماً يجمع المواداللازمة لكتابه « فيصل الاول» وينتظر الفرج فأتاه مع شباط سنة ١٩٣٤ بعــــد تدخلات الحكومتين

البريطانية والامير كية لدى وزارة فرنسة الخارجية وبعد تهديد الجوالي اللبنانية والسورية في اميركة بمقاطعة النتاج الفرنسي .

وعاد « المجرم » من منفاه وهو على اشد ما يكون نقمة واعية على الانتداب والمنتدب لكنه قطع عهداً لأمه بالانصراف عن السياسة فلزم صومعته وداوم على السكوت ١٠٠

كانت تجيئه الدعوات الخطابية ومعها كلمة رجاء بأن يتجنب الموضوعين - البعبعين المخيفين - السياسة والدين (السلطة حظرت طرق هذين البابين) فقال مرة لأحدهم : « من يدعوني للخطابة ويقول لا سياسة ولا دين كمن يدعو الناس الى مأدبة لا خبز فيها ولا ماء » .

وانجز في تلك الفترة الصامتة كتابه « فيصل الاول » فنشره . وقدم له برد على من انهمه باضطراب لبنانيته قال : « يريب بعض الناس حبي للعرب وملوكهم واهتمامي الدائم بشؤونهم وقد انتقدني نفر من الكتاب فقالوا ان وطنك القريب لبنان لأحق باهتمامك من الوطن البعيد ... ولكنت مستحقاً مذمانهم كلها لو ان حبي للعرب افقدني ذرة من حبي للبنان » .

١ حلى معه خروفاً بالطائرة رمز السلام

## حنين الى نيويورك :

طال غياب الريحاني عن الولايات المتحدة وفيها رهط من الرفاق والاحباب والقراء فضلا عن الاجواء الثقافية والفنية العزيزة عليه ، فعزم على الرجوع اليها ، كأنما الانسان كالعشبة تمتد جذوره في كل تربة يطيب له فيها المناخ .

وعاد السندباد اللبناني بحمل في جعبته تصاميم سلسلة كتب عن رحلته الى البادية يعرف فيها العالم تعريفاً صحيحاً بالعرب وبلادهم وحقيقة وضعهم .

وفي الطريق عرج الى لندن ونشر فيها كتابه « ابن سعود وشعبه وبلاده» او كتب عدداً من المقالات في « التايس » حول المشكلة اليمنية النجدية .

بعد وصوله الى نيويورك طبع كتابه «حول الشواطىء العربية » ضمنه انطباعاته عن زيارته للحجاز وعسير والكويت والبحربن وعدن وعمان ، وكتاباً آخر عنوانه « الصحراء العربية » وصف فيه رحلته من صنعاء الى الحديدة .

١ بالانكليزية .

ما عرف الامين ، كل حياته ، للحقد معنى . كان يثور ان مس في كرامته او مبادئه ثم لا يلبث ان يهدأ وقد تناسى كل شيء . فالقلوب الكبيرة لا تحسن ضيافة الضغينة ...

مر امام المنزل القديم حيث قضى سنوات وزوجه وترك بعضاً مــن وجوده فخطرت له برتا مشيقة ، رشيقة ، ترفل بثوبها الارجواني كما رآها اول مرة فازدحمت احداث ماضيه في ذاكرته كالهـــالة حول شخصها فساوره وجوم وجعل يهمس في اذن نفسه : « هنـــــا جلست تسامرني وتربني بعض رسومها ، وهنـــاك في الحديقة كانت تقطف لي ازاهر الربيع ، وهنالك كانت تتأمل وتستوحي مادة فنها . وشاقه الرجوع الى العيش الهاديء في كنف من احب ولا سيا بعد انزال سبب النفور، فأبدى رغبته الى صديق حميم ١ ، حاول عبثاً ان مجققها له . لقد ابت برتا ان تعود الى الحظيرة . . . فقيد الزواج ارهقها ، وجرح كبريامًا لم يندمل . كان قلبها ، على ما يظهر ، كالزجاج الذي لا يجبر كسره حتى في بلاد الغرائب . . . الا انها قبلت ان تكون صديقة لزوجها كما لو لم يربط بينهما

١ أبرأهيم حتي

اي عقد . وتم بالفعل الطلاق المدني بينها وعاشا رفيقين يجمع بينهما وشج الفن <sup>١</sup> وتفرق بينهما العقلية في عمق اعماقها . وقد عبر عن هذا الإختلاف في رسالة وجهها الى صديقه فيلكس فارس جاء فيها :

« زوجتي اميركية احبها واعتبرها واعزها جيداً ، ولكني تزوجتها ولم اتزوج قومها ولا بلاهه\_ا . وهي كذلك تحبني وتعتبرني وتعزني ولكنها لم تتزوج قومي ولا بلادي » .

ونزل الامين ه العازب » في نادي المؤلفين حيث عاش في جو متحرد من تبعات الحياة لاءم اعصابه المتعبة وانساه وحشته الى حد ما ، فوثق اتصاله بالحركة الفكرية في العالم وارخى لقلمه العنان .

### فلسطين

حوالي سنة ١٩٣٠ اخذت القضية الفلسطينية تطرح جدياً على بساط البحث الصهيونيون يصرون على تحقيق وعد بلفور والعرب يأبون التخلي عن « ارض الميعاد » أياً كان الثمن ، والدول الكبرى وقد اعتها المصالح عن رؤية الحق الصراح ، لا تأبه للجريمة الكبرى تتهيأ في وضح النهاد ...

١ لم تنجز معاملاته القانونية الاسنة ١٩٣٩ وفد جاءت برتا الى لبنان سنة ١٩٥٣ وزارت آل الريحاني في الفريكة وترحت على الامين فوق قبره .

اما الريحاني الاديب الملتزم ، فما اكتفى بالمراثي الرومنطيقيةوالتفجع قبل حاول المصيبة ، بل مضى يعمل على اجتناب الشر ، يبين تارة حق العرب الاكيد بموطن من اغلى مواطنهم ،ويظهر تارة مدى خطرالتوسع الصهيوني في الشرقين الادنى والاوسط . وقد طاف في الولايات المتحدة رسولا خطيباً لا يكل. وفي هذه الغضون كتب اليه الحاج امين الحسيني المفتي الاكبر، يسأله ان يشترك في الوفـد الذاهب الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية فاعتذر بقوله: « عدت اليوم من سياحتي الخطابية . شكر لكم ثقتكم بانتدابي لعضوية الوفد الفلسطيني . كنت اود ان اقبل فيما لو تمكنت من القيام بنفقات السفر ، الا اني غير قادر بهذه الايام وانا الا اقبل مالاً من احزاب سياسية جزاء خدماتي للعرب». إلاانه رافق من بعيد قريب مراحل المفاوضات واعلن رأيه غير مرة حول تطورانها في امهات الصحف الاميركية .

غير أن القضية الفلسطينية، على خطورتها، ما أنست الريحاني أصدقاءه من لبنانيين وأمير كيبن فكان يعود اليهم مثقلابالمتاعب شأنه شأن المركب الشراعي في الخضم يفتش عن مرفأ .

ولرب مرفأ آمن كمنت فيه عاصفة، فالجو الهادى، ،جو الجالية اللبنانية، الذي كان يلوذ به الريحاني تعكر في ربيع سنة ١٩٣١ فجبران ،القطب

الذي كان يشيع الانس حوله ، عليل مجتضر .

هرع الامين الى مستشفى سان فنسنت يعود صديقه بالامس وغم غيمة الفتور التي اجتاحت علاقتها ، فألفى البريق في ناظريه قـــد خبا والابتسامة قد تقلصت على غير عودة فوقف مع نفر من صحب جبران يتقبل التعازي .

واضطرته المشكلة الفلسطينية الى الرجوع الىالشرق ليدرس عناصرها عن كثب ويتصل بجمهرة العاملين لها فاحتفل الحلف السوري في بروكان بوداعه واهدى اليه كأساً من الفضة وجائزة نقدية فقبل الكأس ورفض المال وركب البحر الى لبنان وكان رفات صاحب « النبي » قد وصل الى بيروت في ٢١ آب سنة ١٩٣١ فألقى قصيدة ناجى فيسها طيف « ذلك الذي حمل الارث القديم الى ما وراء البحار ... وظه يضطرب لرنات العود وغنات القصب » . وعاهده بأنه « من ظلال الصنوبر الذي سيغمر ضريحه في الفريكة سيحمل النسيم قبلات عطرة ، صباح مساء ، الى ضريحه في ظلال الارز » .

١ رافقه اخوم البرت في تلك الزيارة .

ما كان امين المشبع بروح الثورة الفرنسية ليرضى بقيد الانتداب يجد من حرية بني قومه ومن انطلاقهم الخلاق . لقد عمل بالامس البعيد على تحطيم النير العثاني يوم كانت الاعناق ارخص السلع فما خشي عاقبة . اتراه يخشى الاضطهاد في عهد الانتداب ? انه لايكره فرنسا وهو تلميذ ثورتها وبعض مفكريها ، وهو من دعا الى التطوع في جيشها لمحاربة الاتراك في الحرب الكونية الاولى، لكنه كره اساليب بعض ممثليها ابان الانتداب وجاهر بكرهه . حذر من مغبة هذه المجاهرة فما ارعوى . ولمــــا دعته جمعية التضامن الادبي في بيروت للكلام ربيع سنة ١٩٣٣ ، القى كلمة قنبلة بجضور ممثل المفوضالسامي قارن فيها بين اول وقفة وقفها في بيروت ايام عبد الحميد وبين وقفته تلك في عهد ديمارتيل السعيد فلم يجــــد تغيراً يذكر بين الوقفتين الا اذا حسب الرجوع إلى الوراء تغيراً رغم الانقلابات الخطيرة في اوضاع العالم واحواله · « فمن عهدعبد الحميد قد انتقلنا الىعهد البعل . من ظلم ظاهر الى ظلم خفي . من ظلم مختل الى ظلم منظم . من ظلم يحمل النبوت والكرباج فيتقيها النـــاس الى ظلم مجمل الدساتـير والمعاهدات » .

وما كاد مخرج من بوابة « التياترو الكبير » بعد هذه الخطبة النارية ،

حتى أعتقله رجال الأمن وصدرت الاوامر بنفيه عن لبنان فحمل حقيبته وفيها تصميم « فيصل الاول » وحل ضيفاً على الملك غازي في بغداد . وقبل الرحيل وجه كتاباً الى جريدة « النداء » ودع فيه الاصحاب وغير الاصحاب جاء فيه « ما احزنني بما كان لهذه الخطبة من النتائج الاجتاعية والسياسية غير غيرة بعض الناس ، اخواني في هذه البلاد ، على ما يظنونه مصلحة الفرنسيين وكرامتهم فصحت فيهم الكامة الفرنسية المــــأثورة : التأويل والتشويه لما قلت الى الوشيان والاغراء فقالوا اني فضلت عهد عبد الحميد على العهد الحاضر ( والمقابلة بين العهدين غير التفضيل ) وقالوا اني عدو الفرنسيين والانتداب وعدوالسلطة المحترمة كلها . وما انا بعد عدو لغير الجهل والحوف والتعصب في الناس ولغير الظلم والاستئثار والفساد في السيادات والاحكام ، انما انا عدو اعمال لا عدو رجال . . . انه يجزنني والله ان يكون بين هؤلاء من الاسياد والصعاليك من لا يهمهم غير خبز يومهم وأن جبل هذا الخبز بالتزلق والذل والخداع وبما أن داءهم في قلوبهم كما هو في جيوبهم فاني اسدل على ذكرهم ستار الشفقة والغفران ، • وأقام في العراق مكرماً يجمع المواداللازمة لكتابه « فيصل الاول» وينتظر الفرج فأتاه مع شباط سنة ١٩٣٤ بعــــد تدخلات الحكومتين

البريطانية والاميركية لدى وزارة فرنسة الحارجية وبعد نهديد الجوالي اللبنانية والسورية في اميركة بمقاطعة النتاج الفرنسي .

وعاد « المجرم » من منفاه وهو على اشد ما يكون نقمة واعية على الانتداب والمنتدب لكنه قطع عهداً لأمه بالانصراف عن السياسة فلزم صومعته وداوم على السكوت ١٠٠

كانت تجيئه الدعوات الخطابية ومعها كلمة رجاء بأن يتجنب الموضوعين \_ البعبعين المخيفين \_ السياسة والدين (السلطة حظرت طرق هذين البابين) فقال مرة لأحدهم : « من يدعوني للخطابة ويقول لا سياسة ولا دين كمن يدعو الناس الى مأدبة لا خبز فيها ولا ماء » .

وانجز في تلك الفترة الصامتة كتابه « فيصل الاول » فنشره . وقدم له برد على من انهمه باضطراب لبنانيته قال : « يريب بعض الناس حبي للعرب وملوكهم واهتمامي الدائم بشؤونهم وقد انتقدني نفر من الكتاب فقالوا ان وطنك القريب لبنان لأحق باهتمامك من الوطن البعيد ... ولكنت مستحقاً مذمانهم كلها لو ان حبي للعرب افقدني ذرة من حبي للبنان » .

١ حمل معه خروفاً بالطائرة رمز السلام

وتضمن «فيصل الأولى سيرة العاهل العراقي الكبير في تعددوجوهها. درس المؤلف اخلاقه وطريقة عيشه وكيفية بلوغه الماك وما عانى من مشقات في هذا السبيل وذكر بعض احاديثه مع جلالته في اثناء زيارت الاولى للعراق وبين الدور الرئيسي الذي لعبه لورنس على مسرح السياسة العربية . وجاءت الخاتمة رسالة شعرية ناجى فيصل وح فيصل باعجاب عقبتها خطبة القاها في حفلتي الاربعين لذكرى فيصل في دمشق بعنوان «النسر العربي».

في تلك السنة نظمت ايران مهرجاناً ادبياً لمناسبة الذكرى الالفية للولد الفردوسي ، دعت اليه اشهر كتاب العالم فكتب امين تمثيلية قصيرة وفاء الزمن ، اظهرت عظمة مؤلف الشهنامة الذي نادى باحياء الارض ونشر السلام فوفى له الزمان ومنحه الخلود ، وقد نالت هذه المسرحية الطريسفة اعجاب الامبراطور الايراني فأنعم على صاحبها بوسام رفيع .

\*

في سهرات الشتاء الطويلة كان امين يسأمالعمل والوحدة في صومعته الفريكية فيقوم بزيارة الجيران مع امه واخته سعدى . ولطالما طاب له ان يجلس على الطراحة حول الموقد ويشترك ومواطنيه السذج في معظمهم

بلعبة « المظلوم » على سبيل التندر والترفيه ، فتعود به الذكرى الى عهد الطفولة ، عهد حكايات ابي ليلى المهلهل وحكايات جدته ، فيقارن في لا وعيه بين امسه ويومه ويتأمل ليدون خواطره عند الرجوع .

اما في نهاراته فكثيراً ما كان يقصد اليه القرويون ساعات استقباله ، فيحدث كلا منهم بما يعنيه محاولا ان لا يشعره بأي تفرق عليه في حال من الاحوال ، وكان يقصد الهم مخترفو التسول فلا يرد سائلا ، ولكم اضطر الى ان يخفي احسانه هذا عن اخته سعدى لأنها كانت تأبى عليه أن يسخى بماله لمن لا يستحق حتى اذا ثارت عليه اجابها مبتسما : « الكفن ماله جياب يا سعدى ، معنا لنا وللناس ، ما معنا لا لنا ولا للناس » . فتهز رأسها ساخرة من فلسفته الاقتصادية في الحياة ويائسة من إمكان إصلاح هذا الحلل فيه ،

إلا أن تنسك الأمين ما كان ابداً ليقطعه عن خلانه ورفاق جهاده ، إن طال غيابهم عنه ذهب هو اليهم او كاتبهم وبثهم شعوره ورأبه على غير محاباة . وكان التملق للاجنبي سائداً في تلك الحقبة وكانت الميعة مسيطرة على انفة الاحرار فاذا بكل كتاب بوجهه لمحبيه حقنة من التمرد ونفحة من الاباء « المعاول يا اخي لألزم ما يلزم هذا الجبل الكثير الصخور . المعاول! لتنقر في صخورها اليوم وتحطمها فتصير حجارة تصلح

للبناء وتصير تراباً يصلح للغرس والزرع . حطم اذن حطم ولا تخف أ . ان عقيدة الريحاني ، وقد جاوز الستين ، لا تختلف من حيث صلابتها عنها في الصبا . لقد حمل المعول دائماً في صميم قلمه وحطم على غيير هوادة ليقيم على الانقاض صرحاً يماشي التطور .

١ من رسالة الى فؤاد الشهالي « صاحب المريخ » .

# القضية الفلسطينية

نشر الريحاني كتابه «قلب العراق » وضمنه رأيه الصريح على عادته فلم ترق بعض فصوله السلطة العائمة عهد ذلك في بغداد فمنعت دخوله اليها وصادرت نسخه المباعه «زاعمة انه يحتوي كثيراً من المباحث التي تتعارض مع المصلحة العامة ولا تتفق مع الحقيقة .

غير ان هذا التدبير الكيفي لم يئن الامين عـن عزمه فواصل رسالته التحريرية بجزم .

كانت القضية الفلسطينية السبب الاهم في عودته الى بلاده فمضي كتب في الصحف المحلية ويلقي الحطب والاحاديث ليوقظ الرأي العام على الواقع. وقد وجه رسالة إلى الماوك العرب اورد فيها بعض ما يدعم حق الفلسطينين:

« أما حق العرب الوطني القومي التاريخي القانوني فظاهر كالشمس في

رائعة النهار يؤيده اولا عهـــد الحكومة البريطانية الذي قطعته للملك حسين ( في ك ٢ سنة ١٩١٦ ) بتأسيس دولة عربية تشمل فلسطينوسوريا والعراق ثانياً يؤيده تعــــهد الحكومتين البريطانية والفرنسية في بلاغهما الرسمي (ت ٢ سنة ١٩١٨) الذي يضمن لمن كانوا رازحين تحت مظالم الاتراك، اي العراقيين والسوريين والفلسطينيين، حقوقهم في تأسيس حكومة وطنية تستمد سياستها من مشيئة الاهالي الحرة ثالثاً تؤيده المادة التي تقدم ذكرها ( وعد بلفور ت٢ سنة ١٩١٧ ) وفيها تتعهد الحكومة البريطانية ألا تقدم على عمل ما مضر بحقوق اهل فلسطين الدينية والمدنية وتؤيده رابعاً الفقرة الرابعة من المادة ٣٢ من معاهدة فرساي التي تضمن لأهالي فلسطين وسوريا والعراق الحق في تقرير مصيرهم » ·

ايقن الريحاني بأن الدعاية للعرب ولا سيا الفلسطينيين ضرورة جداً في الاوساط الأميركية « لأسباب ثلاثة : اولا لمقاومة الدعاية الصهيونية التي اضرت كثيراً بالقضية العربية وشوهت سمعة العرب ، ثانياً لتشجيع الاميركيين الراغبين في الدفاع عن قضية العرب ، ثالثاً لرفع شأن السوري واللبناني والفلسطيني في الولايات المتحدة » فلما دعته مؤسسة التربية الدولية في اواخر سنة ١٩٣٦ الى القاء سلسلة من المحاضرات عن الشؤون العربية والاحوال السياسية والتراث الادبي في الشرق الادنى عموماً ، لم يتردد

في تلبية دعوتها .لقد وجد فرصة ملائة لتحقيق مسعاه .

بلغ امين الولايات المتحدة وشرع يلقي محاضراته في مختلف الولايات وخاصة في كاليفورنيا ووشنطونواوريغون، وقد بجث في القسم الثقافي منها حول اثر العرب في المدنية العالمية وقيمة الف ليلة وليلة ، مصادرها الفارسية وصلتها بجكايات « بوكاتشو » ثم النهضة الادبية الاخيرة، وقابل بين طاغور وكبلنغ وحلل نقاط التلاقي بين الشرق والغرب. امـــا في القسم السياسي ، فعالج الافتداب في الدول العربية وما اثار من اضطر ابات شعبية في سبيل التحرر وتكلم عن العلاقات القائمـة بين مختلف الاقطار وجيرانها وانتقل منها الى الحلف الشرقي ، ثم درس صلات الشرق العربي بأوروبة واميركةوعرضقضة فلسطين مبيناً اغتصاب الصهيونيين الفاضح. وقد كتب الى اهله سنة ١٩٣٧ يصف احدى رحلاته قال : « تركنا بلنغ وست فرجينيا الى شيكاغو والمسافة بين الاثنتين تقارب الـ ١٨ ميلا ثم تابعنا سيرنا الى ميتروبوليس منبشتا وهي تبعد ١٢٠٠ ميلاعن الخطة الني وضعت لرحلتنا ولبينا الدعوة لسبب واحدهو الدفاع عين حقوق العرب » . على ان دفاعه عن فلسطين لم يكن لينحصر في هذه المحاضرات وحدها بل تعداه الى الابجــاث الصحفية الضافية والى المناظرات العلنية تجري بينه وبين اقطاب الصهيونية كجاكوبويهاس وموريس صموئيل، وقد كتبت جريدة التايس ستار في سنسناتي اوهايو اذ ذاك ما ترجمته : « اجتمع خلق كثير برعاية جمعية السياسة الحارجية في نزل جيسن لاستاع حوار جرى حول القضية الفلسطينية بين الريحاني وموريس صموئيل اعلن الاول في سياقه ان الصهيونية في فلسطين قد تطورت من روحية مسالمة الى سياسية جائرة طامعة في التوسع والاستيلاء على الاحكام » وقد اقترح امين في مقال نشرته مجلة « فلسطين وشرق الأردن » الانكليزية انشاء وطن قومي في ولاية تكساس بأميركة اذا لا بد من ايجاد وطن قومي لليهود ،

يري

كان البرت بوافي اخاه اميناً كل ليلة بصحف العاصمة واخبارها عندما يعود من عمله . ففي ذات مساء بينا كانا يتحدثان ، ابلغه ان مي زيادة خولطت في عقلها وادخلت مصح العصفورية ، فانتصب هذا مذعوراً يستوضح اخاه : مي الاديبة ابنة الياس زيادة بجنونة ؟؟ ماذا تقول ياالبرت ؟ . . . حتى اذا رأى بعينيه الخبر في الصحف وتأكد صحته ثار ثائره وصاح : لا ! لا ! كيف يكون هذا ؟ وللحال مرت في ذهنه ذكريات الامس البعيد ، فتمثل مياً في كوخهاالاخضر وتمثلها تميس امامه في الصومعة حيث هو وتمثلها في مصر تخطب وفي سفح الهرم . ثم تخيلها

مجنونة في المارستان ، فوجم واضطرب واسودت الدنيا امام ناظريه. ونزل في الغد الى بيروت يزور مياً وقـــد نقلت الى مستشفى ربيز فرفضت ان تقابله وتمرمرت ساخطة ، فلم يكن منه الا ان فتح عنوة باب غرفتها ودخل واذا بها نهكة هزيلة ترغي وتزبد ولا تود ان تشاهـــد امرءاً . حاول ان يهدىء اعصابها ملاطفأفي بادىء الامر ، لكنهاازدادت هياجاً ونقمة ، فاغبر وجهه للحال وحدق اليها بعينين مترعتين بالمرارة وجوم لم يكن قصيراً ، تأوهت المريضة وتمتمت : « لقد ظلموني يا امين وأذاقوني من الاضطهاد أمره » وشرعت تروي قصتها وهي لا تتمالك عن الزفير اللاهب . فأمض الريحاني ذلك المشهد ، لكنه تجلد عن ابداء اساه واملها بالفرج القريب ثم صافحها دامعاً وتوارى .

وكانت المرة الاولى التي رأى امين فيها مياً بعد ان تركها في سفح الهرم سنة ١٩٢٢ زاهية تتفجر حياة ورجاء وغبطة .

\*

عندما غادر الريحاني مصر ١٩٢٢ عاهد مياً على ان يراسلها ويعلمها بأحواله كل مدة ، لكنما شاءت الظروف غــــير مشيئته ، كثرت عليه المصاعب في الجزيرة وتراكمت مشاغله حتى كادت تنسيه كل ما عداها . ولما رجع الى لبنان وعلم بعلاقاتها الحيالية بجبران ، التي كانت يومئذ خديث الجميع ، لم يخطر له ان يجدد صلاته بها لاسيا وانه حفظ اثراً سيئاً عن المرأة وتقلباتها بعد ان خذاته برتا . أما مي وقد آ لمها اعراضالريحاني عنها ، راسلت جبران وهو في اوج شهرته يومذاك فرد عليها باهتمام وتوثقت بينها روابط المودة رغم البحار الفاصلة .

ومات جبران فهلعت مي واضطربت ، ثم توالت عليها مواكب الشجون وساورتها السويداء وأورثتها مع الايام عوارض الهستيريا التي تلازم عادة يأس العوانس العاطفيات عند مناهزة الخمسين ، فنسب اليها الجنون وكان من امرها ما كان .

وتترك « المجنونة » المستشفى وتسكن مخدعاً قرب الجامعة الاميركية كان يعودها فيه امين، البرت الريحاني ، شارل مالك ، قسطنطين زريق، خليل الحوري والامير عبد القادر الجزائري يؤاسونها حيناً ويخففون عنها وطأة الآلام .

وكأنما المصائب للامين بالمرصاد لا تأتيه إلا مزدوجة ، فبينما كان يعمل في مكتبه ذات صباح ، وافته سعدى شاحبة الوجه خائفة تناديه : « اسرع يا أمين ان أمي تنازع » وبعد هنيهة كان الريحاني فوق رأسأمه وكانت قد لفظت روحها فجأة قبل ان تراه ، فعض على سبابته ، ووقف

ذاهلا يفرك يديه وهو يصرف اسنانه ثم دخل الصومعة يواجـه نفسه في السكون ويستعيد بالذكرى مراحل حيــاة ناعمة قضاها في كنف ام امين.

وتدعوه الى نيويورك بعد مدة المحاضرات انسياسية والثقافية التي لم يكن اتمها بعد ، فيستأذن مياً ويسافر الى الولابات المتحدة والغم والهم اليفاه . وهناك انجز مهمته سريعاً ، نور الرأي العام الاميركي على تطور القضية الصهيونية واظهر اعمية الانتاج الفكري في الشرق الادنى ثمرجع للمرة الاخيرة الى لبنان ، وكان الجو السياسي ينذر بالتفاقم الشديد . وفي طريقه ،عرج الى المغرب الأقصى ، يطوف اقاليمه دارساً اوضاعه بامعان ، وقابل حضرة الحليفة وباحثه في شؤون بلاده فأكرم هاذا وفادته وقلده ارفع وسام لديه ، وواصل امين سفره الى لبنان وهو قلق عطش إلى أخبار مي .

وصل الريحاني الى بيروت والصيف في اول احتدامه ، وكانت المريضة قد بدأت تتعافى وتستعيد حيويتها وقد اشار عليها الطبيب بأن تصطاف في منطقة متوسطة الارتفاع ، فاقترح امين نقلها الى منزله في الفريكة ، فمانعت في البدء كل المهانعة وابت ان تنزل في بيت لم يخصص لها ، حتى اذا وعدها بأن يهيء لها مسكناً مستقلا تعيش فيه وحدها ،

قبلت دعوته وجاءت نتنسم الوحي في الوادي !

ها هي مي ترجع الى الفريكة ، بعد ربع قرن وقد اعتراها الهزال وحطمتها العلل وهذه هي الفريكة نفسها تستقبلها اليوم ، كما في الامس، ضاحكة تدفق حياة . وهنالك في مسكن قروي بسيط ، كانت مي تقضي ساعات النهار ، تعمل في المنزل او تطالع وتكتب وتنأمل الى ان يقبل الليل فيزورها امين وسعدى والبرت يلعبون معها « البيناكل » ويتندرون ويضحكون ... والايام تستمر والذكريات تعاود مياً ، لدى إختلائها بنفسها ، فترتعش ناقمة ، ويخنقها الزفير .

ويولي الخريف وياتي الشناء ، وتسافر مي الى مصر ، وقد هدأت اعصابها على نوع ما وعاودها النشاط ، وهي تحفظ للربجاني وللفريكة واهلها اسمى جميل .

\*

اطمأن امين بعض الشيء الى صحة مي ، فاستأنف بعد ذهابها العمل الجدي واخذ يصنف كتاباً عن المغرب الاقصى تحدث فيه عما شاهده ، اثناء سياحته الاخبيرة ، من عادات شعبه واطراره وحسالة المجتمع وخصائصه وعظمة جبل طارق والى كل ما هنالك من امور تساعد في اظهار واقع المغرب .

كان للحرب العالمية الثانية وقع الصاعقة على الامين ، ولا غرو فقد خبر عواقب الحرب الاولى ، وما جرت من ويلات على العالم عامة وعلى لبنان خاصة ، إلا انه سلم بالواقع على كره وراح يأمل في كل صباح انفراج الازمة فيخيب امله في المساء وينام وفي ذهنه شبح دهيب امعنت في تصوير هوله انباء الاذاعات .

إلا أن المشقات ما كانت يوماً لتشل نشاط الريحاني فأفاد من تلك المحنة ليقوم بجولة جديـــدة في بلاده يتصل بمواطنيه عن كثبويكشف أوضاعهم ويخفف من بؤسهم ويدون ملاحظاته ليضيفها الى ما سبقها من الرحلات في كتاب جديد.

في هذه الرحلات اجتاز امين اكثر لبنان ماشياً او على ظهر البغال لا رغبة بالنزهة فقط بل حباً باستكشاف جمال الطبيعة في مشاهدهــــا ومكنوناتها .

ولما توافرت له المادة الكافيةراح يكتب « قلب لبنان » · · وكأنما الاقدار شاءت ان يموت الريحاني وقلــــبه معلق في ــ قلب

١ مات قبل أن يتمه فنشره اخوه البرت كما هو سنة ١٩٤٧.

لبنان \_ فسولت له في الحامس عشر مــن آب سنة ١٩٤٠ ان يوكب الدراجة بعد ان انقطع عن ركوبها اربعين سنة ، وانطلق مسرعاً واثقاً العصبية في بمناه فعجز عن متابعة السير وهوى الى الارض وقد ترضرض رأسه وفيخذه اليسرى رضوضاً أليمة نقل على اثرها الى مستشفى ربيز في بيروت ١، وهناك كان يعوده الاحباء والخلان يتسامرون ويهزجون ولم يكن يخطر لأحدهم ان ضربة الامين حاسمة قاضية . وتفاقمت جراح فخذه واشتد الوجع ، وهو رابط الجأش صابر ، الى ان كان اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر ، يوم فقد الطب كل رجــاء بالشفاء ، فنقل الى الفريكة بناء على رغبته ، كأنه تذكر لامرتين في قوله : « اعرني ملجأ يوم واحد يا وادي الطفولة انتظر فيه منيتي » فأبي إلاان يغمض عينيه في الوادي الذي احبه كل حياته ٠

ولما تملكته حشرجة النزاع ، تزاحمت في ذهنه ذكريات الامس كلها،

١ كان مزمعاً على اقامة حفلة شاي تكريمية على شرف الشيخ عجيل البارد، شيخ مشايخ شمر، يوم الاحد ٢٥ آب وقد جاء في دعوته لهذا الشيخ « ان الفريكة ستترقب طلوع بدركم فعسى الا يتحدث ما يحول دون سرورهـا وسروزكم. وكانت الرسالة آخر ما خطه الامين.

الأب مرقس وقضيه ، عمه عبدو ونيويودك ونيوبرغ والفواتير والمنزل الرطب والعربدة والتمثيل ونعوم ثم مي وبرتا والبادية ولبنان وام امين وسعدى والصومعة والفريكة ، وارسل نظرة الى صميم الافق والى من حوله يودع ويحدق برسول الموث .

وفي الغددفن الامين بجوار امه فمضى ذلك المجاهد المتمرد الذي لم يعرف الوهن ساعة في حياته ، وقد خلف آثاراً مخطوطة كثيرة ، بينها اربعة اجزاء من الريحانيات ، مجموعة مقالات وخطب وخواطر يعرض فيها عرض ذكرى وتفكير ما شعر به وراءه في جولاته ومطا لعاته الاخيرة بأسلوب هذبه النمرس والاختبار ، وعدداً كبيراً من رسائله الحاصة ، التي كان يوجهها الى اشخاص اختلفت طبقانهم وجنسيانهم ، تنم اخلاقه بوضوح وبعض كتب انكليزية \_ العراق \_ الملك فيصل حرس في الف ليلة وليلة - وجده \_ وكريمه - لا يلبث المستقبل ان يظهرها بعد حين ويظهر الريحاني حياً خلالها .

本

هذه هي المرحلة الثالثة من حياة الربيحاني انتهت بموته ، مرحلة كلها عمل و نضال واضطراب لم يذق الزاحة خلالها الالماماً . وجدناه في اولها يحقق حلماً تمكن منه ، يقصد البلاد العربية ، يحتمل مختاراً عناء التنقل

ألمضني على ظهور الابل والخيل والحمير في مناخ سيء حار ويقاسي ألمرض والآلام مخاطراً بجياته كل ساعة في سبيل توحيد الجزيرة وانهاض العرب وتقاربهم ، ثم سمعناه ينده بالانتداب ومريديه لا يخشى نفياً ولا عذاباً لأجل العدالة ويدافع عن فلسطين في الشرق والغرب بكل ما اوتي من عزيمة ومنطق وجرأة ، لا يبتغي الا خدمة الحقيقة والخير فهات وهو على ما اشد ما يكون حمية واستعداداً للقيام بالواجب الانساني . لكنما ثمــار جهاده لم تمت بموته بل قساوم بعضها الفناء وحافظ على طراوته وفعساليتة وسيبقى طالما للحرية مريدون .« اشياء كثيرةتذكرنا هذه الايام بأمين الريحاني ، اولها الصدام الضخم الذي يشهده العالم ــ ويشهد نهايته ــ بين قوى التقدم والرجعية ، لانشاء مجتمع جديد يتمتع فيه الافراد والشعوب بأكثر ما يمكن من اليسر والحرية . وثانيهما مشي الشعب اللبناني قدماً نحواستكمالشروط السيادة والحياة الاستقلالية ، وقد كان الربحاني من انشط العاملين ، بقلبه ولسانه ، في الحقل الوطني يلمس اثر ذلك في كل ما كتبه واذاعه ، وثالثها مشاورات التعاون العربي الذي كان الربحاني من اصدق الداعين اليه والساءين له عن الطريق المثلى طريق التعارف بين مختلف الاقطار العربية ، يعرف العرب بأنفسهم ، ويعرف بعضهم الى بعض في مؤلفـــات قيمة ممتعة ، مـــن « ملوك العرب » الى « قلب

أبنان» ١. كما يذكرنا به كل تجديد جري، في حقل الادب وكل تضحية ابية في خدمة العقائد السامية وكل صرخــة صريحة في سبيل الانسانية والعدالة والحق.

### وصية الريحاني

لا بد في ختام هذه السيرة من نشر بعض وصية الريحاني لأنها تلقي نوراً كاشفاً على الحقائق التي اعتنقها آخر ما اعتنق واراد ان بنادي بها عبر القبور:

« لم تكن حياتي حياة القديسين والاولياء والحمد لله ولا حياة اولي البروة او اولي السيادة والحمد ثم الحمد لله . ولا حياة ذوي الصحة البدنية والقوة الحيوانية ذوي الاعصاب والعضلات الحديدية والحمد ثم الحمد لله . ان ما فاتني من الحياة اللامعة عرفته خلال الحياة الدامعة فالاثم والمرض والوحشة والحاجة هي اصدق الادلاء الى الحقائق الانسانية في نواحي الحياة جمعاء وقد واليت الدليل في الشرق وفي الغرب وتأبطت احدكتبه الحياة جمعاء وقد واليت الدليل في الشرق وفي الغرب وتأبطت احدكتبه الحيام الآلام \_ ثلاثين سنة وحملت في جيبي كتاب الوحشة على الدوام وحاولت ان احرق كتاب الاثم وامزق كتاب الحاجة فأخفقت وما استسلمت .

٨ عمر فاخوري ــ الحقيقة اللبنانية .

اوصي اليكم اخواني في الانسانية البيض والصفر والسود على السواء شرقاً وغرباً .

١ – ان حق الشعوب في تقرير مصيرها لحق مقدس فأوصيكم بالجهاد
 في سبيله اينا كان .

٢ – ان الامة الصغيرة وهي على حق لأعظم من الامة الكبيرة وهي على باطل.

٣ ــ الامة القوية الحرة لا تستحق حريتها وقونها ما زال في العــالم امم مستضعفة مقيدة .

٤ - لا تبلغ الانسانية اعلى درجات الرقي ما زال نصفها مستعبداً واعلموا ان الاستعباد الاقتصادي في البلدان المستقلة الغنية هو شر من الاستعبادين السياسي والاقتصادي في البلدان التي لا تزال تحت سيطرة الاجانب، اوصيكم بمحاربة الاستعباد اينا كان وكيفها كان.

الانتداب كما حدده وودرو ولسون الاميركي الحالد هو معقول مقبول ولكنه علمياً مكروه مرذول انه اخبث من الاستعمار فأوصيكم بجهاده حتى ينتهي .

ثم ينتقل في الوصايا الباقية الى ابداء آرائه في الدين فيقول انه وحداني يعتقد ان جميع الانبياء من بوذا الى المسيح الى محمد الى بهــــاء الدين

يعكسون النور الالهي ، ونجض على التعلق بالروح دون المادة ثم يتكلم عن البلاد العربية وعن وسائل نهضتها القومية ، يهاجم المستثمرين من وجال الاكليروس لأن الدين ليس إلا صلة حية منيرة بين المخلوق والحالق ويبشر بالاخوة الانسانية قائلا انه لا ينبغي ان يقتصر المرء على خدمة وطنه دون سواه بل عليه ان يخدم الانسانية جمعاء ويتحرر من جميع القيود الاجتاعية والتاريخية والدينية التي يرسف بها ولا يبقى إلا قيد الحب الذي يدنيه من خالقه ويجعله جديراً بالانسانية .

تلك هي باختصار وصية الريجاني وهي تنم عن رجل مثالي واع أراد ان مجض على الواجب الانساني من خـــلال الثرى ، فندد بالاستعباد والاستثار والحيوانية بصراحــة لا تعرف الهوادة ونادى عالياً مقتنعاً بالحرية والمجبة والمساواة. وهذه المبادى، التي شاء تحقيقها لدى الغير عاشها اولا وجعل من ذاته وحياته قدوة .

## الفصّل الثّابي

امين الريحياني في أدست الموتف كيع

# آثار الامين حسب تاريخ صدورها

<b>ب</b> مئة	التآليف العربية
14+7	موجز تاريخ الثورة الفرنسية
19.4	المحالفة الثلاثية
19+1	المكاري والكاهن
19.4	ثلاث خطب
1911-191+	الريحانيات جزءان
1910	زنبقة الغور
1917	خارج الحريم او ( جهان )
1978-1975	القو ميات جزءان
1978	ماوك العرب جزءان

1944	تأريخ نجد الحديث
1971	النكبات
114+	التطرف والاصلاح
1944	انتم الشعراء
1982	فيصل الاول
1948	و فاء الزمان
1950	قلب العراق
سنة	التآليف الانكليزية
19.5	رباعيات ابي العلاء المعري The quatrains of Abu , I ala
19.0	المرواللبان Myrile and myrrh
1911	تناب خالد The book of Khalid
1418	اللزوميات The luzumiyat of Abu lala
198.	تحدر البلشفية The descent of bolshevism
1971	جادة الرؤيا The path of vision
1981	أنشودة الصوفيين A chant of mystics
1984	ابن سعود ونجد lbn saoud ol Arabia his People and his land

حول الشواطىء العربية Arabia العربية 1۹۳۰ Arabian peak and desert بلاد اليمن

التآليف التي نشرت بعد موته

بالعربية المغرب الاقصى قلب لبنان سجل التوبة (مجموع دوايات) بذور للزارعين رسائل امين الريحانى

الكتب الانكليزية التي لم تطبع دروس في الف ليلة وليلة العراق في عهد فيصل الاول وجده ــ قصة كتاب عن قبائل الميا في المكسيك مجموعة رسائل

# اسلوب الريحاني

ما زال امين الريحاني حتى اليوم صاحب مدرسة خاصة في الكتابة ينهج نهجها الكثيرون . ذلك انها استمدت معطياتها من وحي مقتضيات العصر فجاءت تسد فراغاً في محيط الادب اللفظي المرصوف عــــــلى غير مضمون ، جاءت ثورة عــــــلى الكلام المنمق والاحاجي والتوريات التي جعلت الانشاء العربي عند اكثرهم ضرباً من التسلية على غير طائل . فما هي خصائص اسلوب الرمجاني التي تجاوزت محنة الزمن ? قال الأمين :

عندما ازمعت هجر ما ألفته مـــن ضروب البلاغة والبيان اقمت والقاموس سنة عددتها من ايام اهل الجنة ، فنسيت ، في خزعبلات اللغة، حزعبلات الحياة كلها . واعذب الخزعبلات أبعدها مـــن الأصول . القاموس مستودع قمح فيه من الزوان والحصى والتراب شيء كثير . وقد تزودت من بعد الغربلة ما قد لا يكفي في نظر علماء الأزهر . ولكن القناعة كنز لا يفنى . »

بمثل هذه البساطة وهذا التحرر من المعتقدات القاموسية كان يكتب امين الربيحاني .

#### خصائصه

انشاء نزق ، فكه ، سلس ، متاسك الحبك ، عصبي ، بعيد عن التعقيد والغرابة . انه يلائم ، كل الملاءمة ، تنقل الكاتب على غير تمهيد من الوصف الى الحوار ، إلى النقد ، فاذا لكل لون من الحديث لون من اللفظ . الجزل للجزل ، والغريب للغريب ، والحقيف ، واذا التورية والكناية تأتيان عفو الخاطر كمثل قوله : «كان كارليل يوعد اذا اغضب ويمطر . اما فولتير فكان يبتسم ابتسامته المشهورة ويسير بهدوء إلى غايته المطاوبة » .

والكاتب الى هذا ، وهو غني بمفردات اللغة ، ينزل الكلمة منزلتها فلا تأتي مقلقلة ولا حائرة ، ولا ناصلة لفرط الاستعمال . لقد تتلمذ على الجاحظ ورابليه و فولتير فلقح اساوبه بالظرف والسخرية والدعابة في

اخطر الموضوعات التي يعمالج: في نقد معتقدات المؤمنين ، كما في ذم الحرافات كما في التصوير والتحليل . انه يدسالتهكم دساً ساعة يعياه البرهان المنطقي .

والرمجاني يكثر في كتاباته من الجمل المعترضة التي يقصد المزاح منها تارة وزيادة التوضيح تارة . وهو يعتمد الاستطرادات المتنوعة تعمداً ، شأنه في ذلك شأن الجاحظ الذي قال : « أن كنا قد امللناك بالجد ، والاحتجاجات الصحيحة والمروجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فاننا سننشطك ببعض البطالات وبذكر العال الظريفة » . أما النكتة فهي حاضرة أبداً على اسلة قلمه يفرج بها عن ألم أو سأم .

قال الربيحاني :

«ان رقي اللغة لفي الخروج على السمج العقيم من مألوفها مع المحافظة على دوحها . لست في المفردات الشدياق ، ولست في الاوضاع اليازجي، ولا أنا من الطامعين بمثل هذا الغنى . ولكنني أعلم أن مزية الالفاظ هي فيها قائمة بنفسها . . . أن للالفاظ ما سوى الرنة والوزب بل الموسيقى والشكل ألواناً أيضاً ، وروائح في ما رق وشف ، وتماوج وضاح مسن معانيها \_ اجل أن في الالفاظ ما تعد في الاحياء لها مرونة البان ، وصلابة المبادي ، وشذا الرياحيين ، وزمزمة وصلابة السنديان ، وسلاسة الماء الجاري ، وشذا الرياحيين ، وزمزمة

الرعود ، وصفير البلابل ، وهمس النسيم ، وابتحاء الالوان ، مما يجعلها لدى الكاتب كنزاً في الانشاء والابداع » .

### الصورة الموحية

يعبر الريحاني عادة عن فكرته بمثل حسي ملموس كقوله : « رب اوهام كبعض الاطيار تبيض بيوضها في عش الحقائق ، ويعنى بالدقائق والتفاصيل ويفتش عـن الكلمة المؤثرة الموحية وعـن اللون والحركة ، ويتجنب الكلام غير المألوف اللهم إلاللهزءوالتجريح كمافي المقامة البكبجية. انه يعبر عـــن فكرته بصفاء وحيوية وبساطة ، ويجيد اختيار الصيغ المفاجئة سجعاً وترسلا ، ولا يتورع عن استعمال اللفظة التي تطمئن اليــها اذنه عنــــدما تكون الكلمة القاموسية ثقيلة الوقع . فهو مثلا يستعمل « منتزه » و « متمدن » عوضاً عن « متنزه » و « متمدين » ، وفي هذا يقول : « لست منكراً ما في القاموس ولست طامعاً بأن ازيد عليه . ولكني اسأل هذا السؤال: إذا خلت اشتقاقات نزه من انتزه وكان معنى تنزه عكس المطلوب والمفهوم فهل بجيز القياس او السماع انتزه ثم اسم المكان منهمابدل الاسم الذي صار معلوماً وهفهوماً،وهو فوق ذلكخفيف لطيف ، لا اثر للتحذلق فيه » .

لقد أخذ أحياناً على هذا الاسلوب ركاكة الانباء الصحفية العادية

نتيجة السرعة أو إهمال الصقل كما أخذ عليه التصرف الحر بالحروف التي تتعدى بها الافعال فضلا عن اللحن في الانشاء .

ومها يكن من أمر فان أسلوب الربيحاني حي حار ومن لحم ودم · انه يتلبس فكرة المؤلف تلبساً وكأنه فصل لها فتبدو منظورة من خلال زجاج شفاف . انه ثورة جارفة على الادب المحنط المزركش الهذار . ابو الشعر المنثور

عرف أمين الربيحاني بهذه الكنية لأنه أول من كتب شعراً منثوراً او قريضاً حراً في العربية . وقد نقل هذا الزي الرائج في الغرب عـــن الافرنج وبالاخص عند الاميركيين والانكليز « فملتن وشكسبير أطلقا الشعر الانكليزي من قيود القافية وولت وتمن الاميركي أطلقه من قيود العروض كالاوزان الاصطلاحية والابجر العرفية . على ان لهــذا الشعر وزناً جديداً مخصوصاً وقد تجيء القصيدة منه على ابجر عديدة متنوعة . وولت ويتمن هو مخترع هذه الطريقة وحامل لوائها وقد انضم تحت هذا اللواء بعد موته كثير من شعراء اوروبا العصريين». لكأن الربحاني المتمرد على كل تقليد ابى أن يعفعن القوافي والعروض في الشعر العربي فحطمها وأطلقه منها محتذياً مثال الشاعر الاميركي .

اما تبرير هذا التحرير وتفسيره فهو ان صاحبنا وجد ان عقم تصور الشعراء وتبذلهم سببه الافعل تقيدهم بالبحور والروي . وتحقق انالتزام القافية الواحدة والاوزان الوضعية يحول غالباً دون التبسط والتدفق ويضطر الشاعر اما الى أن يلجم قريحته لئلا تقع في البيت « فتكسر رأسها واما الى أن يشذب المعاني الجديدة لتلائم الصيغ القديمة وإما إلى أن يختار اهون الامور فيجيئنا بالنثر المنظوم ' « والشعر بعـــد أمواج من العقل والتصور تولدها الحياة ويدفعها الشعور فتجيء الموجة كبيرة أو صغيرة ، هائجة أو هادئة ، محرقة أو باردة أو فاترة ، بجسب مــا في الدافع من قوة الحس والبيان . واكمل موجة من الامواج قالب مـن اللفظ شُعراً كان أم نثراً . يصوغه الشاعر في حال التقيد او الاطــلاق ، فيجيء عدلا او مجسما ، مبتكراً أو مبتذلا ، جميلا أو سمجاً ، بجسب ما عنده من ذوق وصناعة . فاذا جاء القالب كبيراً ، سمعت الموجة تتقلقل فيه فيذوب ما فيها من معنى وجمال . واذا ماجاء صغيراً يفقدهاالضغط جمالها ومعناها . اذن لكل موجة قالب لا تهنأ في سواه ، أو بالأحرى اكل فكر صيغة لا يسلم ولا يصح ولا يكون جميلا إلا فيها . كذلك

١ الريحانيات، ص٩

قل في كل عاطفة وكل خيال ، فاذا جعل للصيغ أوزان وقياسات تقيدها تتقيد معها الافكار والعواطف فتجيء غالباً وفيها نقص أو حشو أو تبذل أو تشويه أو إبهام ، وهذه بليتنا في تسعة اعشار الشعر للنظوم الموزون » .

والواقع إن الشعر ليس كلاماً موزوناً مقفى وحسب ، بل هو فيض شعوري متناغم يحوطك بجو من النشوة الفنية تشدك إلى الشاعر فاذا بك نجيه بالرغم منك : ألمه يؤلمك ، وفرحه يفرحك ، وتجارب تبعث فيك صدى ، وقلقه يزعج التنفس في رئتيك . فاذا ما اعتمد الاقدمون الوزن والقافية في الشعر فلأنهم أرادوه بموسقاً تتجاوب أوزانه مع الحداء أو ما يشبه الحداء وتنسجم قوافيه مع رتوب القفر الفسيح . اما وقد تطورت التجارب الحياتية وتنوعت مجاليها فكان لا بد ان تتطور اغراض الشعر وهياكله ومقاييسه . فالموشحات الاندلسية مثلا ، وقد أوحاها جو زاهر عذب ، اعتمدت قوالب رشيقة نجانس الذوق الذي يأبي الاجهاد فاستقل المقطع بقوافيه وتلونت الأوزان وتشابكت البحور . وميا صح بالموشحات الاندلسية يصح، في نسبة ما؛ بمعظم الشعر المهجري الحديث .

۱ ادب و فنس ه ؛ .

بيد انه لا بد مــن ضابط هرموني في القصيدة ألمنثورة يحل محل القوافي والاوزان القديمة وإلا تعـذر التمييز بين الشعر الحر أو المنثور والنثر الشعري او المشعور . . . ولقد أخذ الريحاني نفسه بهذا المبدأ حين قال : « على أن لهذا الشعر وزناً جديداً مخصوصاً الخ . . . »

هذا من حيث الشكل . اما من حيث الجوهر فتبقى للشعر اغراض مجنحة يقصر عن ادائها النثر الزاحف ...

في مجموعة « هتاف الاودية » لا بد ان تدرك بادى، بدء ان الريحاني حذا حذو ويتمن في « اوراق العشب » في الصيغة المتحررة، بقدر ماحذا حذوه في اختيار الموضوعات الديمو قراطية والقومية وهي موضوعات تعاليج في النثر ، كما لا مجفى ، بصورة افضل وافعل . فمن الريح السموم ، إلى الثورة ، الى الرماد والنجوم ، يكاد يطبق على صدرك بما تلبد من غيوم . لكن الفرج يأتيك ، عند مهد الربيع فيورق الورد ويهتف الوادي وتذوي الزنابق فيعمر الجو بالطيوب .

وفي القسم التوجيهي من الديوان مـا تأثر الريحاني ولت ويتمن وحسب ، بل تأثر خصوصاً السور القرآنية اسلوباً وفكرة ونغما ، فما الريح السموم مثلا إلا ريحصرصر بعنينها التي اهلكت عاداً ، وماالسجع في « بربك العيوم » مـا الذي تظـنه يدوم إلا صدى بعض آيات

ويعود بنا القسم التالي إلى جوفني فيه فوح اربج وفيه زقز قة حساسين الكنه رغم هذا لا يحملنا إلى اثير الانخطاف . واخال ان الشعر الريحاني يعوزه الحيال المجنح بقدر ما يعوزه ذلك الوزن المخصوص الذي تحدث عنه نظرياً . فلو اخذنا قصيدته في رئاء حبيبة عمره :

أيتها الساكنة قعر النهر القصي ايتها الراقدة تحت الأمواج الغريبة لا تجزعي ولا تخافي

انت اميرة اللؤلؤ ، واللؤلؤ يلاقيك مرحبا انت ماكة المرجان ، والمرجان يجدك منشدا ،

لو اخذنا هذه الابيات و كتبنا بعضها وراء البعض الآخر كما نكتب النثر العادي فهاذا يتغير ؟ ابن فيها ذلك النغم الجامح الذي يطير بك إلى فضاء التخيل الحالم ، بل ابن فيها التعابير التي لم يبرها الاستعمال وينصلها الابتذال ، وابن الالفال التي تلتقي في تركيب طريف او تؤلف في وقعها نغما يهمس ويوحي ، وابن الكناية التي تشير ايماء وخطفاً إلى القصد البعيد ، وابن الصورة المكوكبة التي تجتذبك كالسراب وتنسيك انك

١ راجع مقال نظير زيتون (الرسالة) عدد آب وابلول سنة ١٩٥٩

من تراب ... فبقدار ما حلق الريحاني في نثره فطوعــه ولونه وانقه وفكمه واغناه ، بقدر ذلك اعياه القبض على ناصية الشعر فأخفق فيــه منظوماً ومنثوراً . واي امرى وليت شعري قيض له ان يكون سباقاً في كل مضامير القلم . حسب الريحاني ان يكون صاحب مدرسة حديثة في التعبير النثري الحي سمت بالاساوب الجاحظي الى الاوج .

### ادب الرحلة

ان ادب الرحلة لون قائم بذاته مضى الغربيون به بعيداً من حيث المتعة والفائدة . اما في العربية فقد بقي في اول الطريق ، جامداً تنقصه دينامية الفن . هذا إن استثنينا احمد فارس الشدياقي الذي مخلته الغرابات اللغوية عن الانصراف الكلي إلى ادب فكه خلق له .

كانت غاية القدامى ، من امثال ابن بطوطة وابن جبير ، تدوين الطباعاتهم ومشاهداتهم في بلاد مجهولة ، وكانوا يضحون بالمتعة في سبيل الفائدة . ابن بطوطة مثلا كان ركيك التعبير ، ساذج الملاحظة ، كثير المبالغات . وابن جبير كان متحذلقاً في تنميقه البياني يغرق اللذة الادبية تارة في سجعه وتارة في استطراداته اللغوية على رغم دقته في النظر ولباقته في التعبير وموضوعيته في إبداء الرأي .

اما الريحاني فقد جمع الادب الحي إلى المادة الاخبارية الطريفة .

فحكى بأسلوب روائي مرح سلس ، حكاية اسفاره الطويلة في بلادالعرب يوم لم تكن تربط بينها اية وسيلة من وسائل المواصلات الحديثة. فجاءت رحلاته ، وهي تشكل الاهم من آثاره في الانكليزية والعربية، موسوعة متكاملة الحلقات تنظوي على كل علم وخبر ، من تاريخ الى جغرافية الى اقتصاد الى اجتاع ، بل شريطاً ملوناً ناطقاً ذا احجام يوهم القارىء انه وفيق الرحالة يوكب وراءه على ظهر ذلول او ضروس .

حتى في سرد الاشياء العادية عرف الريحاني كيف يكشف لها وجهاً جديداً ويخلق جواً يساعد على تبديد السأم . من عفوية في الحوار هنا الى مسارة حميمة هناك ، الى شمول في الوصف هنالك ، وتربط بينها جميعاً روح دعابة تدفع الى الاستزادة .

قصرالريحاني رحلاته على العالم العربي . لم يذكر شيئاً عن اسفاره في سائر العالم القديم ولا الجديد . ولعل رسالته العربية حملته على هذا الحصر . فقد شاءان يعرف العرب الى العرب ليقرب بينهم جميعاً ، لأن الانسان في طبيعته ، عدو ما يجهل . وقد شاء ايضاً ان يدل على مواطن الخير والشر ، والتقدم والتأخر ، في بلاد العرب بغيرة الرسول الموجه . ولعله اول من اشار الى موارد النفط في الشرق العربي ففتح عليها العيون ومهد لظهور الثروات الطائلة فيها .

وقد يكون غير ما كتب الامين في ادب الرحلات : « ملوك العرب » . و « قلب لبنان » . فدا خصائص هذين الكتابين ؟ اولا وخصائص سائر آثاره في ادب الرحلة ؟

### ملوك العرب

يقع « ماوك العرب » في جزئين ، تناول اولها الحجاز والحسين ، واليمن ويحيى ، وعسير والادريسي ، ولحج وسلطانها . ودار الثاني على نجد وابن سعود ، والبحرين وآل خليفة ، والعراق وفيصل . وقد درس المؤلف فيها ، باسهاب ودقة وعمق ، احوال كل بلد وامكاناته ومستوى شعبه ، وصور ما رأى وأدرك ، وروى ما سمع وحدث ، ببساطة انيقة وقالب رشيق .

وهذا الكتاب ريبورتاجغزير المادة طريف النهج ، تجلت فيه خصوصاً قدرة الكاتب على السرد الطويل النفس على غير املال بقدر ما تجلت فيه دقة ملاحظته وبراعته في الاستنتاج والتعليل . وطريقته الكتابية هي الطريقة الريحانية المستكملة مقومانها : سلاسة في العرض على فكاهـة وتنوع وصفاء . لقد اراد ان يجعل من هذا السفر الضخم مرجعاً وثيقاً سهل المنال مغرياً لا يبقي زيادة لمستزيد .

في هذا الكتاب ، يقول الامين ، طائفة من الآراء التي تهم العرب

خصوصاً والاسلام عموماً والتي تهم الاوروبيين عموماً والانكليز خصوصاً ويجدها القارى، في مكانها من البحث ، اما الذين لا نهمهم السياسة بقدر ما يهمهم العلم والادب واخبار الاسفار . فقد خصهم بقسم بما كتب وقد اتخذ في ذلك اسلوباً يقرب من القارى، ما شاهد بعينه ، وسمع بأذنه ، ولمس بيده فيتمثله اذا تم القصد الفني حياً لديه .

ألا تخالك تجالس الامام يحيى ، وتدخن القات معه عندما تقرأ في كلامه على سيد اليمن مثل قوله : ودخلنا فاذا نحن امام رجل ربع القامة ، صغير الرجل واليد ، اسمر اللون ، عالي الجبين ، مستدير الوجه قاتمه ، له غ كفم الطفل ، صغير بارز . الا ان في مرونته وهو يتكلم اشارة تقربه طوراً منك وتارة تبعده . وفي عينيه السوداوين القريبتين من انف قصير عريض نور يضيء وشرارة في بعض الاحايين رواعــة ، وله لحية سوداء قصيرة تخللها خيوط من الشيب ويلبس قباء من القطن مخططأ فوق جبة ذات اردان من نسج اليمن ولعهامته البيضاء الكبيرة ذؤابة تكاد تصل الى اذنه . هخلنا فاذا هو جالس على فراش اسود وثير ، تحته فراش آخر وسجادة عجمية والى جنبه الوسائد يتكىء عليها وامامه زجاجة مـــن

٢ مقدمة ملوك العرب

الماء ورزمة القات وخادم ينتخب الطري من غصرنها ويقدمها له ١».

اي رسم فوتوغرافي او زيتي يظهر الامام بشكل اوضح واوفى القد السهمت كل عناصر شخصية الامين ، من المصور الى الشاعر الى الخطيب الى الكاتب الى المحدث الى السياسي الى الانساني، في وضع هذا الكتاب فجاء ماتعاً مفيداً .

قد يتبادر، اول وهلة ، ان الريحاني حصر همه بملوك العرب وحدهم بينا هوفي الواقع تناول الشعب كافة على اختلاف طبقاته واقطاره و درس احوال القبائل الرحل والمقيمة ومستوى وعيها ، ووصف الطبيعة في تعدد وجوهها لقيد كان في كل قطر يفتح الاذن دائاً لجميع الناس فيسمع الشريف والبدوي والجمال والجندي والتاجر والسياسي ويدون احاديثهم في اطار من انطباعياته الحاصة ، وهياك بعض ما سمع من محمد دفيقه الى حضرة الامام يحيى عن العقلية اليمنية :

«لا يزال اهل اليمن وعسير وحشيين لا يثق الواحد منهم بأخيه ولا يركن اليه ، حيانهم خوف دائم واضطراب . هكذا ينامون في عسير ، وبادر الى بندقيته فوضعها بين جنبيه وضمها اليه . هم كالحيوانات البريسة مخشون كل من يدنو منهم . وفي اليمن ، وقد رأيت بعينك ، النساس

٢ ملوك العرب

كابهم مسلمون وكابهم يقاتلون ويقتلون لأمر طفيف، نحن نغار على حقوقنا. ما قيمة هذا ، واخذ بيده فنجان قهوة، ولكنه لي هو حقي . فاذااخذته مني ، اغتصبته وما سمعت احتجاجي ، اقاتلك استل عليك هذه الجنبية ، اذبحك . هذه طريقتنا في اليمن . اذا حدث قتال بين بيتين في هـذه القرية مثلا ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ، فتشب في القرية مثلا ينضم اهلها وقد انقسموا حزبين ، الى المتقاتلين ، فتشب في القرية نار الحرب . وعندما تنطفىء يتساءلون ما السبب في القتال بين فلان وفـلان ، يقاتلون اولا ثم يستعلمون : هذه طريقتنا في اليمن . فعارب حتى اهلنا . يحارب الاخ اخاه ، والابن اباه . فاذا كانت هذه حالنا بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الاجانب ؟»

انه يسجل على غير محاباة كل ما يسمع ويتحقق صحته ، فهدف من الكتـــاب ما كان استدرار نعمة سلطانية ليجعل من التقريظ رائده بل شاء ان يعرف العرب بعضهم الى بعض تعريفاً يتجاوز الرسميات والسطحيات ، فليس في الثناء في ما كتب تزلف او مداهنة ولا في النقد تشيع او تحامل الما غايته القصوى تمهيد السبيل الى التفاهم المؤسس على العلم والحبر اليقين ، ولا علم ولايقين الافي تبديدالاوهام وانارة الاذهان ا .

١ ملوك العرب

ه ان لكتاب ملوك العرب اجل قيمة في ادبنا المعاصر ، فهو يعرفنا ما نجهل عن قومنا ، ويؤكد لنا ما سمعناه عنهم ، وعن ارضهم . يصف لنا العربي وشممه وحرينه وهممه وصدقه وكرمه . يرينا ان الرياء لا يستطيب الاقامة تحت السهاء التي تحتها نار ، فما يعيش في تلك الارض المرملة ، غير الصراحة التي يراها المتحضرون خشنة كحياة المتسمين بها – عرب البادية ١ . »

انــه وايم الحق ، قيم في غايته ، سائغ في صيغته ، لا يعوزه إلا تجانس اكثر في بعض فصوله قد تبرره سرعـــة الاخراج . تفرغ من قراءته وانت واهم انك ترافق الامين كظله فتشاهد بنفسك البــادية واهلها .

#### قلب لبنان

اما قلب لبنان فهو جولات كتابية ، في صميم بلاد الارز ، دونها الريحاني واهـداها الى صديقه الحميم شادل قرم صاحب « الجبل الملهم » ولكنه مات قبل ان يتمها .

تقرأ قلب لبنان فاذا انت فعلا في قلب لبنان ، يرافقك الامين في

١ مارون عبود : امين الريحاني .

اوديته وسهوله وجباله ، يشير الى مواطن الشعر فيها وموحى الجمال ، ويكشف لك عن الاحقاب الغابرة وما حملت في تواليها من فتوحــــات ومدنيات فعلت في شخصية هذه البلاد واغنت تراثها الحضاري . وتسير مع الريحـــاني آمناً راضياً ، لا تمل حديثه اللبق الرشيق ، فتجد في «قلب لبنان» كل ما شاقتك معرفته عن احوال هذاالبلد وسكانه وعاداته وتقاليده بالامس واليوم . تعرف هــــذا وكأنك تعيشه ، لأن الامين، الدقيق الملاحظة ،اجاد تصوير كل قرية ووصف لهجتها وخصائصها اجادة خلقت جو القرية الحقيقي حياً طليقاً يفرض نفسه . يجدثك عـــن محبوب المنكاري والاخ حنا مثلا فتتمثلها بين يديك ويصف الك اعياد القرى وافراحها فتخالك ترقص فيها .

اما اسلوبه الكتابي فجاحظي بسيط انيق نميزه النكات القارصة و تنوع الغايات ورشاقة التخلص. « ليس من اغراض هذا الكتاب ، وهوكتاب اسفار ومشاهدات ، سرد الاخبار الشخصية او العائلية ولكننا نحدثك ونحن سائرون بما فيه من عبرة او ذكرى ، ونروي من الحوادث التاريخية الحاصة او العامة ، ما لا يخلو من فائدة او تفكهة بل نزيد على ذلك من حين الى حين ، عندما نقف في التيار نستريح . فاذا كان هناك مشهد جميل وصفناه او اثر قديم استنطقناه ، واشرنا الى الطريف من ماضيه .»

« انها طريقته في جميع جو لاته الكتابية: انجاث متفرقة ، مختلفة المواضيع يربط بينها نفس الريحاني الذي يدفق ايماناً بأنجاد بلاده واهلها على غير تعصب قومي او تقرير حدود. « فالفينيقيون ولا نكران ، هم رواد الحضارة في قديم الزمان . وقد مهدوا السبل ، بما اوتوا من حذق وذكاء ومن شجاعة واقدام ، لمن جاء بعدهم من الأمم التي فاقتهم رقياً وعمراناً . والفضل للمتقدم » .

وفي هذا الكتاب ، تجد بين الحين والحين مقاطع شعرية بليغة الايجاء مستمدة من صميم الارز ، والصخور : «رفعت حجراً من حجارةالطريق الى فمي فقبلته ورعا حاملا آملاقبل ان دخلت الظلال القدسية واستغفرت الارز لامتهاني حرمة عزلته ، هذه العزلة الفريدة في اعالي الجبال ، فوق وكر النسور ، وراء حجب الآفياق . استغفرت الأرز لأني جئت استكشف مكنون سره » . وتجد تمثلا وثيرقاً برينان يتجلى في تلك التعاليل المرنة الهدامة التي يلبسها طابعاً علمياً شفيفاً يتواءى خلاله التهكم الفتاك .

قد يعوز هذه الجولات الادبية احيانا صقل اوفى في الاسلوب، واستحكام اوثق في اللحمة، وتعمق ابعد في حقائق التاريخ. ولكنها مآخذ لا تضير فصولا لم يقيض لها الانجاز.

ان «قلب لبنان» ليبقى «مع ماوك العرب في طليعة آثار الامين . وان فيه من رصانة البحث على متعة النهج ، ومن بروز الشخصية على غير اجهاد ما يضمن له الحياة ، كل الحياة .

وهذا رأي لميخائيل نعيمة فيهما وفي « قلب العراق » : اما وقد قرأت ملوك العرب في نصيه الانكليزي والعربي وقرأت قلب العراق وقلب لبنـــان فيقيني ان الربحاني سيحيا في آدابنا وصافا ورحالة قبل ان يحيا مصلحاً اجتماعياً وسياسياً ، او شاعراً او قصاصاً فهو في رحلاته عين صافية تصور لك اهم ما تقع عليه من امور في ادق ألوانها وظلالها . وهو الى ذلك فكر ثاقب يجيد تنظيم ما تصوره عينيه ، وتنسقه وتعرضه في اطارات تتناسب ومعانيه وألوانه . ثم انـــه يستعين في كل ذلك بما اوتيه من شعور الشاعر وذوق الفنان واتزان الناقد وسخرية الساخر . فلا يهزل في مكان الجد ولا يجد حيث لا ينفع الا الهزل . لذلك ترافقه في امعان فلا ينكر لك فكر او عصب ولا تمل لك عين او اذن ولا يتسرب الى قلبك اي اشمئزاز او سأم . بل على العكس تنتقل مــن متعة الى متعة ، ومـــن وليمة الى وليمة ، كل ذلك وانت جالس في كرسيك او مستلق على سريرك ولا تنسف الربح في وجهك الرمال ولا تشويك شمس الدهناء ولا تجرح يديك او رجليك صخور وادي الجماجم او

اشواك جبل الارز .»

#### الخطيب

عرف الريحاني خطيباً بليغاً بقدر ما عرف كاتباً . فقاما اعتلى اديب منبراً اكثر بما اعتلاه هو ، محاضراً مرة وخطيباً مرات في لبنان وفي اميركة وفي النكاترة وفي سائر البلدان العربية . اديب ملتزم عاش القضايا التي دافع عنها فأعلن رأيه للجمهور بدون مواربة ولا تحفظ .

اسلوبه في الخطابة اسلوب شخصي لا يختلف عن اسلوبه الكتابي العادي إلا بما يقتضيه هذا اللون تارة من تزايد وتأكيد وتارة من تلميح وايجاز. وكان يضفي عليه طابعاً خاصاً عن طربق المقابلة والتواذن .

« اطلبوا الحرية الروحية التي تحصنها الآداب قبل الحرية المدنية التي تتاجر بها الاحزاب . »

« بدون الناموس يستبد الحاكم ويوغل في الطغيان وبدون التهذيب يستبد الشعب ويمعن في العصيان · »

« الحرية جمال يزدهي في اعمدة الصحافة واندية الامة . الحرية عبد انسى التجار الشغالهم والاتقياء فروضهم وانفاسهم . الحرية آلهة هجرت الامة معابدها . »

وكان الى هذا يتجنب الصيغ المحنطة الطنانة والقوافي الجافة . وكان

يستمد من وحي الساعة موضوعاً طريفاً ينفذ منه بأسلوب الزئبقي الى صميم المعضلة الاساسية التي يعالج ·

الحطابة لدى الرمحاني وسيلة تعبيرية كان يلجأاليها كما الى سواها لبث دعوته الاصلاحية . تثور نبرته فيها او تتزن حسبها تقتضي المواقف ، لكنها تنم دواماً عن اقتناعه الاكيد بما يقول . يؤكد ذلك جيشان حيويته ساعة الكلام فكأن كل لفظة بل كل ايماءة تتمخض عن شعوره الباطني .

وكان يتوجه الى عقلسامعيه عن طريق الحس فيورد الامثلة الواقعية والاستعارات الموحية ويتعمد السجع المحكم الايقاع ، ويبرز الوقائ مساوقة التسلسل ظاهرة الحطوط ويدفعها دفعاً حثيثاً حتى اعماق وجدانهم لينال منهم ما شاء من اقناع مكين واخال ان لمهارسته التمثيل المسرحي يداً في تعزيز طاقته على الاقناع اذ دربت القاءه ولهجته وجعلتها طيعين يتلاءمان والفكرة تلاؤم الخمر والماء ، فكان بمثلا مصوراً وشاعراً خطيباً في وقت واحد ، ولم يدرك عليه الا بعض قصور في حلبة التجويد اللفظي في وقت واحد ، ولم يدرك عليه الا بعض قصور في حلبة التجويد اللفظي كانت تخفيه حرارة الايان التي بثير في الحضور .

كان الريحاني يقيم حواراً بينه وبين سامعيه في تساؤله المقصود وذلك لكي يشعرهم انه ينطق بلسانهم ويجسد انفعالهم .

« جبالنا المقدسة ! ايهجر بنوك حقول السكينة فيك ليتلوثوابأوساخ

السياسة واوحالها! ايهملون ادخك فتصير بورا ، وغاباتك فتصيرصخوراً حباً بمنصب في الحكومة بذل النفس ويفسد الحياة! الى الحقول اخواني، الى الحقول! ليرع كل منا خويصة نفسه ، ليشتغل كل منا عن اصلاح الناس باصلاح شؤونه . ليتعهد ارضه بالحراثة والتربية ، فيصطلح عندئذ لبنان ، ويصطلح شعب لبنان ، وتصطلح حكومة لبنان » .

لقد طغت النبرة الحطابية عند الامين على معظم شعره المنشور وعلى بعض مقالاته الصحفية لا سيا في المرحلة الاولى مـــــــن حياته ، مرحلة الشباب والثورة .

# تحليل اهم آثار الريحاني

#### الريحانيات

ان كتابي «نظرات» المنفلوطي في مصر و«ريجانيات» الريجاني في لبنان ظهرا معاً في فجر النهضة الاجتاعية والادبية والسياسية في هـذا الشرق فجاءا ، وكأنها على موعد ، ينفحان روحاً تحررية جامحة في ابناء فجر هذا القرن ويوجهان طموحه .

والريحانيات في الاصل المجموعةخطب ومقالاتوضعت في ظروف

١ صدر في الاصل أربعة اجزاء وبقيت اربعة مخطوطة ثم أعاد طبعها البرت الربحاني (شقيق الامين) فغصل المقالات الاجتاعية في جزئين مستقلين عن الخطب القومية التي جمعها في جزئين اطلق عليها اسم « القوميات » . أما الشعر المنثور فقد صدر في « هتاف الاودية » وأما المقالات النقدية ففي « أدب وفن » وأما الدراسات التي تتناول شخصيات بارزة فقد ظهرت في « وجوه شرقية وغربية » وأما الحكم المنفرقة فقد استقلت وحافظت على اسمها « بذور للزارعين » .

مختلفة تعبر عن رأي صاحبها في اصلاح الفرد والمجتمع وفي سنن الطبيعة والحياة . انها خطرات من حصاد الزمان والاختبار الشخصي لا تربط بينها صلة معنوية ولا تنتظمها ساسلة محكمة الحلقات ، اللهم الا فكرة التحرير من الجهالة والتعصب والتقليد والخمول في تسلسل منطقها بالنسبة الى ما تعلمه صاحبها على يد الثورة الفرنسية والتقدمية الاميركية . تقرأ فيها هنا مناجـــاة رومنطيقية للطبيعة الام ( وادي الفريكة او جسر بروكلن ) وهناك نقداً ساخراً ساماً للعادات السخيفة والمجاملات والبراقع الموسمية ، وهنالك تعريضاً بمدنية الغرب ، مدنية الكهرباء والبخاروحب الذات والاستئثار التي ثمارها اليأس والانتحار ، كل ذلك على الطريقة الجاحظية الفكمة الملقحة بسخرية فولتير والعنفوان النيتشوي « قد يأتي يوم يشاهد فيه ابناء الارض رجل المستقبل العظيم وقد ترقت فيه القوى الحيوية الى منتهى الدرجات ، .

وأحسب أن أهم ما أنطوت عليه الريحانيات في أجزائها الثانية هو نظرات الريحاني الفلسفية ، ومحاولاته في الشعر المنثور ، وانتفاضاته في سبيل التحرر القومي . وقد تناول المادتين الأوليين فصلان مستقلان من هذا الكتاب . أما المادة الاخيرة فهي زبدة الحطب السياسية والاجتاعية التي كان يلقيها الامين في المناسبات الطارئة فيرتفع فيها غالباً من الحاص

ائى العام ويربط الحدث العـــابر بالنواميس الانسانية الشاملة ويبقي له طراوته على الغالب رغم زوال المسببات .

ان أكثر الافكار الاساسية التي استندت اليها هذه الخطب هي من وحي تعماليم الثورة الفرنسية: الاصلاح الحقيقي هو الاصلاح الجذري لأن الثوب البالي خير من الثوب المرقع . والحرية السياسيه تبقى عقيمة ان لم ترتكز الىالحرية الروحية وليدة العلم الصحيح والتهذيب. والمدنية الحقة تقوم على العدالة الاجتاعية والمساواة . والشعب الامثل يعي تبعته الانسانية ويعمل علىتحملها بجزم وأباء . والثورة ضرورة تاريخية تفرضها سنة النشوء والارتقاء الازلية . « والثورة الحقيقية تبدأ فكراً وشعوراً ولا يبقى من آثارها بعد ان تمر ، الا ماكان منطبقاً على ما نضج في الانفس والعقول . بل لا ينمو من بذورها الا ما وافق التربة التي تزرع فيها ١ هاما التعصب والخوف فهاتوأما الجهالة والتقليد.

اما جزءا « الريحانيات » الاخيران فتضمنا بحوثـــاً شتى كالجزئين الاولين ، من مقالات تبسيطية الى محاضرات الى مراث ، الى خواطر وحكم الى شعر منثور ، لا يربط بينها اي رابط معنوي . فبينا انت مثلا

٨ القومياتس٣٨

تقرا عن الجوامع وما توحي بساطتها من خشوع وتأمل ، اذا بك فجأة في الاندلس ترافق الامين في زيارات « مقامات كان لها من السرور ايام زاهرة ومن المجد اعلام وقباب ما تبقى منها اليوم غــــير قصور متهدمة نبتت في جدرانها الاعشاب ، ونظم العنكبوت مرثاته فوق النوافذ منها والأبواب ، وجلس في عروشها العالية السكون » · او اذا بك تعود نيويورك او الى مصر او الى العراق ورفيقك مؤنس يبدد عنك الضجر . الاسلوب الكتابي فيها ازدادبه تماسكا وشخصية . والنظرات الفلسفية اكتسبت شيئًا من التجانس فاذا هي في معظمها دعوة الى التوفيق بـين مدنيتي الغرب والشرق ، ودعوة الى نبذ الفواصل العرقية والجغرافيــة والوهمية التي تفصل بين بلد وبلد رغبة في تحقيق التعاون الانساني لأن الناس على اختلاف الوانهم ودولهم ان هم « إلا امة واحـــدة تجمعهم جامعة الآداب والفنون ودين واحد شامل قوامه الابوية الالهية والاخاء العام » •

#### تاريخ نجد الحديث

يتناول احوال نجد في ماضيها وحاضرها كما يتناول سيرة السلطات السعودي بتفصيل وتحليل وقد استقى الريحاني الاخبـــاد من مصادرها العليا فأثبتها والمحملها بعض من ذوي ألعرفان .

تضمن هذا الكتاب نبذاً ثلاثاً تخللتها الحرائط والرسوم. دارت اولاها على نجد في تاريخها وجغرافيتها ، والثانية على تاريخ محمد بن عبد الوهاب والوهابية ، والثالثة على تاريخ آل سعود منذ نشأتهم حتى استيلاء محمد بن الرشيد على نجد ، اما الحاتمة فقد اشتملت على سيرة عبد العزيز آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

في المقدمة حاول المؤلف ان يقارن بين ابن سعود ومعاوية والمأمون وصلاح الدين الأيوبي فأدت به المقارنة الى تفضيله عليهم جميعاً ، رغم علو مكانتهم ، لأنه نمكن دونهم من ان يجمع شمل الجزيرة .

ولا يختلف الاسلوب الكتابي ههنا عنه في « ملوك العرب » فهو اخباري ، فكه ، غزير المادة ، انما يشوبه احياناً بعض جفاف علمي اقتضاه التوغل في مجاهل التاريخ ، ولربما احتاجت وثائقه الى مزيد من التنقيب والتعليل على رغم امانة المصدر .

#### عبد الحميد

مسرحية تمثل تعظيم عبد الحميد حتى في سجنه . وقد انجزها في سنة العمر ومثلت، اول مرة ، على المسرح الجديد في بيروت فلاقت نجاحاً فريداً لأنها افرجت عن حقد كبتته الصدور منذ اجيال .

« ألا تعلم أن من يقتل البشر بالمئات تعد له الامة القصور الفخمة ، تهابه وتكرمه ، ومن يقتل الناس بالالوف تمجده ، وتنصب له التأثيل ، فمن انت بالنسبة الى هؤلاء السفاكين الكبار ليخطر في بالك الاقامــة معهم » .

بهذه اللهجة العنيفة يرد احد المساجين على رفيق له سأله لماذا لا يسجن السلطان المخلوع في سجنهم .

إلا أن حيدر باشا أحد العبيد الخيانعين بالامس ، الذين شربوا دم الابرياء من أجل عبد الحميد لم يو رأي الامة بل ثار على الشرع الذي قدس شخص الطاغية وداس التقاليد التي ترفعه على حساب كرامة الشعب وه خل قصر الاتنبي ( سجن السلطان ) واطلق بوجه الجبار عنان النقمة الموروثة التي أخفاها الارهاب في أعماقه منذ أن فتح عينيه على الحياة : « مكانك با عبد الحميد ! أود والله لو تجسدت فيك هذه الشرائع ، وهذه الانظمة والقوانين كلها فأشد على عنقك بيدي ، واربح العالم منك ومنها معاً » .

انه الريحاني نفسه يتلبس شخص حيدر ويعبر بلسانه عـن الثورة الكامنة التي انتظرت نفاخاً يثيرها لتقضي على كل ما يذكر بذلك العهد . فحد عبد الحميد هو محو كل ما يرمز اليه من استعباد وظلام كما كان هدم

الباستيل واعدام الملك في الثورة الفرنسية ، هدم مراتع الظلم واعــدام التفاوت بين طبقات البشر ٠٠

#### زنبقة الغور

قصة اخلاقية اجتاعية طويلة دارت وقائعها في فلسطين . فيها حب ينتفض ثم يخيب ، ورجال دين يحيدون عن الواجب . وفيها صرخة بؤس ورعشة الم . انها خليط من مآسي الحياة حاول المؤلف ان ينسج منها قصة فنية فأخفق . وإذا زنبقة الغور اقرب الى الحكاية المتشعبة العقد ، المتعددة الفصول على كثرة اشخاص منها الى الرواية المركزة الموضوع الحكمة التسلسل المنطقي ، البارزة الابطال . اسلوبها الكتابي ركيك على الغالب تطغى فيه الاستطرادات الغريبة والتفاصيل النافلة على اللوحات الحية والحوار الرشيق والتحليل النفسي المعمق .

#### النكبات

بحث شعري اوجز فيه الريحاني تاريخ البلاد السورية في مختلف العصور فعمل، بتهكم لاذع، على التغني العقيم بذكر الجدود طالباً الى الابناء ان

١ نشرتها دار المعارف المصرية في مجموعة « سجل التوبة » سنة ١٩٥١ مع
 اقاصيص اخلاقية سلسة السرد وواقعية المنطق ، عميقة المغازي .

ينصر فوا الى تسوية مشكلاتهم اليوم واعداد عدة الغد . وحاول ان يبين بشكل خطابي، ان هذه البلاد التي كثيراً ما نتغنى بأمجادها ، ما كانت في جميع عهودها الا مسرح استعباد مئل عليه الفانحون ، من اشوريين وفرس ويونان ورومان وصليبيين واتراك ، مأساة أليمة كان ختامها نشيد الانتداب .

اما اسباب النكبة الموصولة التي حلت بسوريا فيعزو اهمها الى عــدم التجانس الاجتاعي (والتعصب الطائفي واضطهاد الاقليات فضلا عــن الاستسلام لسنة المجهود الاقل فدعا الى نبذ العصبية انى كان مصدرهــا والى التكتل الوثيق في كنف الوطن .

#### انتم الشعراء

بين التأثيرات التي حملها الريحاني من البيئة الغربية الرجولة في التصرف فكان ينفر من التواكل الشرقي والميعة الشرقية حتى في الشعر . لذا آلمه انصراف الشعراء العرب الى الندب والبكاء والعويل عوضاً عن الاسهام باثارة الشعور القومي الصحيح وقد اراد الشاعر رسولا يوجه بيئته وينفث في صميمها العزيمة والثقة بالحياة . فعبر عن نظرته هـذه في غير مقال

١ اقترح الزواج المدني كحل للمعضلة ٠

وخطاب الحاملا بعنف على الشعر الباكي والألم والدموع وعلى الشعراء ذوي القلوب اللينة المتره لة التي تذوب كلما ناح الحمام او اهتز الورد في الاكام. فهو قد شفي والحمد لله من رومنطيقيته وجارى عصر الحديد والكهرباء بعد ان ادرك ان حاملي القلوب الحانقة الذائبة اعجز في المحن والنكبات من فراخ القطا واجبن مسن صغار الارانب ، وبعد ان اكتشف ان الندب قد يكون مشتقاً من الانتداب . . . .

ولربما حمله على هذه الصرامة في اللهجة ، عدا تبرمه بالانتداب في لبنان، شعوره الباطن بالنكبة الفلسطينية ووقوف الشعراء والادباء العرب موقف المتفرج منها ومن الانتداب بل موقف السكران لرنة عود ناسياً عويل الجياع ...

وجمع سنة ١٩٣٣ بعض هذه المقالات والخطب في كتيب اطلق عليه عنوان « انتم الشعراء » اثار الاوساط الشعرية في لبنان فردت التحدي بكتاب غفل عنوانه « اجل نحن الشعراء » عارضت فيه الامين حتى في عناوين فصوله وخصائصه الطباعية · واحتدم من ثم الاشتباك القلمي في

القي بعضها في مدرسة البنات الاهلية والجامعة الوطنية بعاليه والجامعة الاميركية .

الصحف والمجلات مجنوضه كل ذي علاقة وكل طالب شهرة . وقد وضعت مجلة « المشرق » عدداً خاصاً لهذه المناسبة حللت فيه الكتابين كليها آخذة جانب الدفاع عن الشعراء بشكل رصين .

واسيء تأويل الفكرة التي اوحت الى الامين نقمته على الشعر الباكي فقال بعضهم انه الحسد بجدو الفاشل في الشعر على الانتقام من البارزين فيه ، واكد بعضهم ان عداوة شخصية يكنها امين الربجاني لأحدهم سولت له ما كتب ، وكثر التعليل والاستنتاج. ويبدو ان نظرة الربحاني الى الوجوه والانسان هي التي وجهته هذا الاتجاه فهو يأبى الحياة الاجهاداً موصولا ويأبى الادب الاالتزاماً مستمراً ويأبى الرجولة غارقة في ميعة مقيمة واستبكاء على الطلل .

#### قلب العراق

لميستوعب « فيصل الاول » كل ما اراد الريحاني تدوينه عن بلاه الرفدين فأتبعه بكتاب « قلب العراق » . وقد تناول فيه جغرافية هذا البلد الشقيق وتاريخه منذ غزوة هولا كو حتى يومذاك . جاء الكتاب في ثلاثة اقسام تخللتها خرائط وصور . دار اولها على بغداد بوجه عام ، والثاني على الآثار القديمة وغزوات الاثويين الاجانب « خير للعراق ان تبقى آثاره مدفونة في ارضه من ان تطير الى ما وراء البحار » ، والقسم تبقى آثاره مدفونة في ارضه من ان تطير الى ما وراء البحار » ، والقسم

الثالث تحدث عن النهضة في جميع وجوهها الثقافية والادبية والاجتماعية والشعرية وعلاقته الربحاني بأدباء العراق ولا سيماالرصافي .

#### رسانل الريحاني

الادب العفوي الحميم هو الادب الذي يبقى ، لأنه مسلوخ من اعماق الذات . انه نداء من قلب الى قلب . والرسائل طليعة مثل هذا الادب الحي لا سيا اذا كان صاحبها كاتباً من طراز رفيع يطل على آفاق كل ثقافة وكل محيط ، كما هي حال امين الربحاني .

لا اغالي اذا قلت ان رسائل الامين ، التي جمعها ونشرها اخوهالبرت هي من اروع آثاره .

من ميزات هذه الرسائل انها رشيقة انيقة على طرافة وطبعية ومرح فالسخرية اللبقة التي عرف بها الريحاني لا تكاد تغيب عن صفحة واحدة من صفحات هذا السفر الضخم . والشهادة الصريحة لمجتمعه او عليه لا يعوزها المنطق السليم ولا براعة التحليل على غير تعمل .

اي اديب ، لعمري ، تسنى له ، في فسحة العيش ، ان يتصل اتصالات الريحاني بمختلف الشخصيات والشعوب والاوساط والحضارات وقد جاء في رسائله بزيدة انطباعاته وانفعالاته وخواطره حول هذه الاتصالات . فمن رسالة بريئة بسيطة الى أبويه ، او اختيه ، او اخويه ،

الى رسالة عنيفة نارية لرفيق في الجهاد الاستقلالي، الى رسالة فكهة لأديب جمعته به وحدة الشعور امام مشكلات الحياة ، الى رسالة لكبير مسن قادة الشعوب العربية او الاجنبية عبر فيها عن رأيه الموزون بجرأة لا تعرف المحاباة. كل هذه الرسائل التي يربط بينها الانشاء السلس، والروح الحقيفة ، وصدق التعبير ، تشكل مرجعاً تاريخياً حياً لهذا النصف القلق من قرننا الحاضر .

ولعل رسائل الربيحاني اصدق مرآة لحياتنا العامة، في الشرق العربي لا تعكس الظواهر وحسب بل تبين من خلال الظواهر حشد الملابسات والتمخضات الخطيرة .

## آثار لا بالانكليزية

#### مسلك الرؤيا

فصول متفرقة تعالج القضايا الاجتماعية والروحية فتعزو اضطرابها في الغرب الى التكالب على الربح المادي . وترى طريق النجاة في طريق الرؤيا « حيث تجد النفس خلاصها في ما يعقل و لا يرى » .

ان فكرة الامين ههمنا تفتقر الى الوضوح المعهود في سائر كتبه . وقد يكون الطابع الشعري الذي اخرج فيه نظريته هو ما جعلها تتخبط في الغموض « البلابكي » فتتأرجح بين نحديد للجوهر الإلهي في الحماة وبين اقتران عقلي روحي وبين دعوة الى الكهال الروحاني ، على غير لحة منطقية ولا تسلسل معنوي .

وبين الموضوعات المتنوعة الكثيرة التي تتطرق اليه الهذه الفصول موضوع الحرية الروحية التي هي حجر الزاوية لجميع الحريات بدليل ان ابكتانوس كان حراً ، في عبوديته ، وكذلك سقراط في سجنه ، والمسيح على الصليب ، وموضوع الوطن ونظرة الغربيين والشرقيين اليه « الغربي يعتقد انه جزء من الوطن او الدولة والشرقي يعتبر نفسه جزءاً من الكل ، وموضوع الأقانيم الثلاثة المتحدة :الشعر والموسيقى والتصوير .

#### انشودة المتصوفين

مجموعة شعرية اوحى بعضها اغتراب الشاعر في عالم الناس وتوقه الى اللانهاية وبعضها ذكريات غرامية تمتزج بشعور الحنين الى مراتع الصبافي للنان.

الريحاني في هذا الديوان « شاعر ينطق بتموجات فكره ونبضات قلبه ، فحيثًا تسمع لقلبه نبضة تجد في شعره جمالاً وتسمع له دنة وتأتي على آخر القصيدة شاعراً انك قد اقتربت خطوة من الشاعر ولمست جانباً من كيانه ( ».

وقد كتب هذه القصائد بوحي من الجو الأميركي "بعيد الحرب وقد

١ مېخائيل نعيمة

هبت عليه نفحة صوفية عذبة من الشرق تبلسم النفوس المتقززة حيال وحشية الانسان . وهو الوحي عينه الذي امد جبران في « نبيه » . تحدر البلشفية

حاول الربحاني في بحثه التاريخي العلمي هذا ان يرد نشوء البلشفية ، تلك الحركة الفكرية الثورية ، الى الشرق « منبع كل خير وشر » · وتأييداً لنظريته عرض للحركات المختلفة التي قامت خلال التاريخ في بلاد الأنبياء وكان لها بالشيوعية صلة قريبة او بعيــــدة . فمن المزادكة الى الخوارج الى القرامطة الى الحشاشين ، انتقل المؤلف الى حركة المتنورين التي قام بها ويسهاوبت واشياعه في ألمانيا في اواخر القرن الثامن عشر ، وسعى الى اظهار الوجوه المشتركة بينها جميعاً . اما علاقة هذه الحركات كلها بالبلشفية فهي ، على حد قوله ، اتفاقها الجوهري حول التسرد عـلى النظم القائمة التي تكرس التفاوت بين حقوق الشعب وموجباته . وهــو يذهب في متعاونة واستقرائه وتعليله واستنتاجه الى ابعد من هذا فيقرران كل الحركات التي ذكرها متشابهة في الأصل انما تختلف شكلا ، فيخلص الى القول: « أن البلشفية كسائر النُورات الإصلاحية التي سبقتها،عاصفة تهب حيناً ثم تهدأ بعد ان تورث النتائج الحسنة اذ الأمة التي تخوض عباب ثورة تكسب قوة ادبية وروحية نوازي ، بل تفوق ، ما تخسر ه مـــن

قوى مادية ۽ .

جهان

رواية اجتماعية ١ لخلاقية مسرحها تركيا الغارقة في التعصبوالجهل. صور فيها الريحاني ما تعانيه الفتاة من اضطهاد وضيم اذا حاولت التحرر ناهجة نهج رفيةتها الاوروبية . وتجسيما لقساوة الواقع اختار امين لقصته صفيحة من اشد صفحات التاريخ العثماني سواداً ، اختار العهد الذي وصل الالمان فيه الى فروق بعد نشوب الحرب الكونية الاولى وسخروا اداة الحكم لمصلحتهم ، فوقفت تركيا بين نارين جامحتين ، نار خصومها ونار اعوانها . وفي هذا الموقف الحرج ظهرت بطلة القصة ، جهان ، وهي فتاة راقية تجندت للدفاع عن حقو قالمرأة التركية وعن كيان بلادها المهدد، وقد طلقت زوجها لاشراكه بها نمحاولت ان تتزوج من غيره لتنجب من ينقذ وطنها . غير ان الاقدارتخذلها فيغتصبها قائد ألماني احبها فتقتله بعد ان تكون حملت منه طفلهاالمنشود .

لهذه القصة غايتان غايــة اجتماعية تدور حول تحرير المرأة والتساهل الديني وغاية سياسية تقوم على اظهار السيطرة الجرمانية على الاتراك .اما

١ ترجمها الى العربية عبد المسيح حداد .

الاسلوب فقريب المنال ، عصبي اللهجة ، يفتقر احياناً الى التسلسل المنطقي وعمق التحليل ووحدة السياق .

#### خالد

رواية اجتاعية تتناول الثورة الروحية والمثل الاعلى في حياة الفره وتصور عقلية اللبناني او السوري المهاجر وخصائصه وعاداته وامكاناته . هذا الكتاب درس اجتاعي ، قصصي القالب ، يصور نفسية المهاجر السوري او اللبناني ويحلل اخلاقه وعاداته في الغرب . وهو ثلاثة فصول عناوينها : في السوق ـ في الهيكل ـ في كل مكان . يبدأ كل منهابنشيد يرمز الى مغازيه . في الاول نداء للانسان جاء فيه « مهها جزل خيرك يرمز الى مغازيه ، في الاول نداء للانسان جاء فيه « مهها جزل خيرك ومها تفاقم شرك ، لا ازال اخاك . مها عليت في مدارج الحياة ومها تسفلت لا ازال اخلص لك واؤمن بك واحبك » .

وفي الثاني صلاة للطبيعة « ايتها الام الازلية السهاوية الجهنمية ها انذا امامك اخر ساجداً عند قدميك ، اسلم نفسي اليك . . . عانقيني واهمسي في اذني بعض اسرارك ، املئي حواسي وكياني من نفحاتك ونسهاتك . افتحي امامي اعماق روحك يسر الي بعض ما فيك من قوة وعظمة وجلال » . وفي الثالث استغاثة ملهوف مخيب بربه « عبئاً طلبتك الها الرب الاله في ادبان الناس ، وعبثاً مجثت عنك في سرادب عقائدهم » .

بطل الرواية شاب بعلبكي قصد وصديقه الى نيويورك فأقاما فيها يبيعان « بالكشة » ويدرسان عن كتب عناصر المدنية الاميركية . ثم عاد الفتى المتأمرك الى بلاده مشبعاً بروح التحرر قأعلن رأيه صريحــاً في الدين والمجتمع والناس ، فجر عليه نقمة الاتحاديين ، بصدد سياسة الشرق الثورية ، وسخط الاكليروس ، بشأن حرية المعتقد . انه يمثل المهاجر العصامي الذي ينظر الى المدنية الشرقية بعمين الغربي فيتمنى لو تنتشر العلوم ، والصناعات الحديثة في بلاده . وينظر الى الحضارة الغربية، بعين الشرقي ، فيكرز بالروحانيات وبالافلاع عن التكالب . انـــه مسيحي المولد، شرقي الصبغة، اسلامي اللهجة، يعرض آراء الريحاني نفسه، يحرز بجرأة الرسول فيبدي اعجابه بالشعب الاميركي النشيط ويتوقع له مركز السيادة في العـالم رغم تنديده ببعض تصرفاته وبانجرافـه مع التيار المادي .

انها معظم الافكار المبعثرة في « الريحانيات » تأتلف ههنا وتنسجم على نوع ما ، فاذا المدنية المثلى مدنية متزنة حرة نوازى فيها العقل والروح واذا الفرد الامثل ذلك الذي تحرر من التعصب والجهل والتقليد وصهر في ذائيته ميزات العالم الغربي وفضائل المتصوف الشرقي .

« للشرق والغرب ارنم ــ للنهرين العظيمين اللذين بهما ينتعش الانسان

ويتقوى ويتطهر جسداً ونفساً · لكايبها اغني وبها افتخر ، ولهما اوقف حياتي ، ومن اجلها اعمل واتأمل واموت . اخواني ان اعظم الناس ارتقاء ليس اوروبياً اسيوياً بل هو يختار من مزايا هذا وذاك ما يكون النابغة الغربي والنبي الشرقي ، اعطني يا شعوب الغرب القوية لوازمي المادية في هذه الحياة ! وانت ايها الشرق ! يا بلادي ، اشركيني بميرانك الروحي » .

نجح الريحاني ، في هذه الرواية ، بتوفيقه بين المبنى والمعنى فجاء السلوبه شعرياً في مواقف التأملات الروحية واخبارياً في بحسال السرد الواقعي ، وخطابياً ساعة محاولة الاقناع عن طريق العقل والعاطفة معاً . الما يؤخذ عليه احياناً شيء من التكلف في انتقاء الالفاظالنادرة الاستعمال ويؤخذ عسلى قسمه الاخير بعض الاضطراب في اللحمة والتقلقل في تسلسلها المنطقي .

اما الاشخاص فأحياء، على الغالب ، يعيشون في بيئات حية كذلك، بارزة الطابع المحلي ، لكنهم يسيرون احياناً طوع هوى المؤلف، ولا سيا ساعة يسترسلون في العظات الطويلة ، فلا تتالك ان تسأل نفسك هل انت تصغي الى خالد ام الى الامين يخطب ، انهـــا الذاتية الغامرة عينها التي سيطرت على جبران في اقاصيصه سيطرت هنا على رواية الريحاني التي تنماز مع هذا ، عن نتاج صاحب « النبي » الروائي بواقعية الوصف ودقة التحليل النفسي .

#### ابن سعود وشعبه وبالاده

لحص فيه الريحاني ما كتبه عـــن جبار الجزيرة في كتابيه « ملوك العرب ۽ و ۽ تاريخ نجد الحديث ۽ واضاف اليه اشياء جديدة تهمالقاريء العربي . وقد استهله بتوطئة ابدى خلالها اعجابه بالسلطان السعودي ذلك الاعجاب الذي اوحى اليه ما كتب وقد جاء فيها « بنيتم يا طويل العمر البيوت للبدو فكانت الخطوة الاولى في سبيل تمدينهم فعسى ان تخطوا الثانية فتنشئوا لهم المدارس . ان في المدارس تحقيق غاياتكم لأنها تكمل عمل السيف وتسهل وحـــدة الجزيرة العربية ، وتناولت الفصول فيما تناولته الرحلة الريحانية في تفاصيلها وانطباعات المؤلف في مقابلاته مسع ابن سعود وفيمشاهداته اثناء التنقلكما تناولت خواطره وتعليقاته حول مذهب الاخوان ومجالسهم وعاداتهم وغزواتهم وخصائصهم باسلوب بسيط منوع لا يختلف عـــن اسلوبه العربي إلا بقدر ما تقتضيه طبيعة اللغة . فالاستطرادات كثيرة متشابكة والانتقال من موضوع الى موضوع لا يدع للملل مجالا للتسلل اليك . فبينا الكاتب محدثك عن الخطة السياسية التي اتبعها ابن سعود في اتصاله بالانكليز والقبائل المجاورة اذا به يحملك

بدون تمهيد الى البادية يريك لياليها المقمرة او يسر اليك بما عاناه من الحمي في القصر السلطاني في الرياض او يروي لك حكاية ظريفة عن رجال القصر وهم يكوون قمصان مليكهم لكأنه في سمر موصول مع القارىء بجدثه، دونما تكلف ، بما يخطر له من شؤون ومرئيات خزنها في حافظته عن تلك الاقطار التي كاد يجهل الاميركيون والانكليز عنها إلا اليسير اليسير . وقد تطرق الريجاني خصوصاً في هذا الكتاب الى احوال نجـــد في نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فرأى الاصلاح الفعلي موقوفأ على امور ثلاثة ألح على السلطان بتحقيقها وهني : اخضاع البدو ، حملهم على اعتناق مذهب الإخوان وتثبيتهم في الارض بعد تعليمهم مبادىء الزراعة الحديثة وتثقيفهم .

#### حول شواطىء الجزيرة العربية

دوًن فيه وصف رحلته من عدن الى صنعاء والحديدة ودرس طبيعة هذه البلدان ومظاهر عمر انهاو تناول فنون البناء والشعر والادب وما اليها وصور اليمنيين واخلاقهم وعاداتهم ومرافق عيشهم بجرأة ووضوح واعلن اهداف زيارته وهي كما ذكرها للامام في صنعاء « ان يرى البلاد ويكتب عنها ثم يتطوع لحدمة شعبها » . واخذت على هذا البحث بعض هفوات تاريخية ناتجة عن سرعة في النتاج وتقريبية في التأويل فهو مثلا يقول ( في

الصفحة ١٨٦ من الطبعة الاولى ) : ﴿ أَنْ ذَا نَوَّاسُ اعْتَنْقُ الْأَسْلَامُ أُولَا ثم كفر به ليدين باليهودية ، بينما اثبت التاريخ الحديث وفاة هذا الملك قبل ظهور الاسلام . واخال ان كثرة التصاميم الكتابية التي عزم الامين على تحقيقها عـــن العرب ، على ضيق وقته ، اضطرته الى الاقتصاد في التدقيق حول المصادر التاريخية والمقارنة بينها واختيار الاصح فضلا عن ان هذه الناحية لم تكن اهم غاياته في رحلته وكتاباته وهو قد رام أن يعرض صورة حية عما احس ورأى وفعل واكتشف في تلك البلاد فبلغ اقصى مرامه وجعلنا نتمثل الرحالة في رحلته ونرافقه خطوة خطوة كما لو بدت المشاهد ملونة ناطقة على شاشة بيضاء شأنه في ذلك شأنه في نتاجــه بالعربية .

### فيلسوف الفريكة

ما حاول الريحاني ان ينشى، مذهباً فلسفياً خاصاً ، متاسك التركيب متجانساً ، يتطرق لحل مشكلة كونية او حياتية معينة على طريقة جديدة الماكانت له نظرات فلسفية كسائر حكماء الشرق ، مبعثرة في آثاره ولا سيا « الريحانيات ، ، يكون مجموعها نواة مذهب انتقائي توفيقي فيه من الرواقية شيء ومن تقدمية الانسيكلوبيديين شيء ومن علمية رينان شيء ومن الحلولية الطبيعية اشياء . اضف الى كل هذا اختباراته الحياصة والجوين الاميركي والشرقي اللذين عاش فيها ، وتأثراته بداروين ونيتشه وغاريسون وامرسون والبروتستنتية المتحررة .

الحلولية الطبيعية التي يدين بها الريحاني هي ، في خطوطها الكبرى ،

تلك التي نشأت في المدرسة اليونانية مع هيراقليطس ثم تولتها المدرسة الرواقية مع زينون الى ان طورها شيلنغ وروسو ورينان . انها تقول بأن الكون هو الحقيقة وان الله ليس الا قوة تلازم الطبيعة وتحركها بل هو روح الكون ينمو هواماً وبنموه تنشأ الكائنات طراً .

يقول الريحاني فيما يقول : « شعرت بأن روح الوادي قد اتحدت بي وروحي قد انحدت بالوادي المرايحاذر ابن الطبيعة امه ؟ ٢ ﴿ هل الحجر الذي يتأجج تحت هذه الصفحة الحديدية منفصل عن القوة الشاملة المتفرعة في كل اجزاء المادة ? . ايكون في الكون قوة منفصلة كل الانفصال عن قوة اخرى ؟ نعم ان المادة تتجزأ ، ولكن حرك فيها القوة الكامنة فترتج وتتموج وتتأجج وتعود الى الفروع التي تنفصل عنهاوتتصل بها من البدء". البَأْمِل يسمو بصاحبه الى ما فوق الدنيويات ويعقد بين خالقه وبينه ذاك الاتحاد الذي تتوق اليه كل نفس بشرية سامية » ٤ « اني ارى في كل ما حولي من الطبيعة شيئاً من الجوهر الالهي الذي نسمي مصدره الاصلي إلها أو خالقاً . وكلما درس الحكيم الطبيعة قرب من الناموس "الرئيسي السائد في كل جزء منها ، وهذا الاقتراب من الناموس هو ما اسميه اتحاد

۱ ریجانیات ج۱ ص ۳۲ ۳ ج۱ ص ۳۶ ۳ ج۱ ص۱ه

الانسان مـع خالقه » \ « ما هو الاتصال السري بين روح الاشجار وروح الشجار وروح الشجار وروح الشجار وروح الشعراء والانبياء » \ \ • « إنا الطبيعة وإنا اليها راجعون » \* • ان هذه النظران المناه، و في الريحانيات ناتراً عفه با تنم عـن محاولة

ان هذه النظرات المنثورة في الريحانيات نثراً عفوياً تنم عن محاولة تأليفية لا واعية بين مختلف وجوه التصوف في نطاق الحلولية الطبيعية ، اي بين نظرية الاتحاد التي عبر عنها البسطامي ونظرية الحلول التي قال بها الحلاج ونظرية وحدة الوجود التي تغنى بها ابن عربي وذلك من ضمن الطبيعة الأزلية التي تساوي وتوحد بفضل قوة مستترة فيها بين شتى كائناتها فلا تميز بين كبير وصغير ولا بين انسان وحيوان ونبات .

اما لغز الوجود وما قبله وبعده فلا يحاول الريحاني ان يتصدى لــه بشكل جدي بل يحسبه قضية تفوق الادراك الانساني فيسلم بها كما هي .

انه يبعد الفكرة الماورائية من حيز فلسفته ويصب جهده على الحـياة كما هي على علاتها .

والجرذان في قبوك لا يعرفون هل القبو ثابت الى الابد او الى حين . ولا يعرفون من شيده ولماذا . انما هم يعيشون في زاوية منه او بالحري في ظلماته فيجدون في ظلب رزقهم ويدافعون عن انفسهم ويهربون من وجه الحيوانات المتسلطة عليهم فيضاعفون نسلهم ويضاعفون في ذلـــــك عذابك . هذه زبدة حياتهم ومصلها في القبو الذي بنيته لنفسك لا لهم . والبشر في هذه السيارة الصغيرة التي تدعى الارض انما ــ جل شأنك ــ كالجرذان . فاننا نعمل كأحقر المخلوقات في الظلمات ولا نعلم هل العالم ثابت الى الابد او الى حين . ولا نعرف الغاية التي من اجلها شيد هــذا القبو الذي يدعى الارض ولا الغاية من وجودنا فيه فضلا عن قصد البناء العظيم ... هس انحن كالجرذان <sup>۱</sup>» .

«ما لنا وللآخرة الآن . لنصلح بيتنا هنا . اوم يقل الغزالي ان تعمير المنازل من شروط تعمير الآخرة . او شيئاً من هذا . لنصلح اذن بيوتا لنا هنا . وربك يصلح بيوتاً لنا هنا . وربك يصلح بيوتاً لنا هناك . وان شاء ان يكون في بعضها

١ الريحانيات الجزء الاول ص ٢١٩

الزبانية ، وفي بعضها الحوريات ، في بعضها انهار من اللبن والعسل ، وفي بعضها نار و كبريت ، فالمشيئة له تعالى . ولكن اباً بشرياً مهما تناهى في الوحشية لا يستطيع ان يكون ارحم من خالقه واشفق . والاب البشري على حد علمي لا يحرق ابناءه مهما تناهوا في الكفر والعصيات والعتو والطغيان ... ولكن شغفي اليوم في الدنيا لا في الآخرة ١٠، وبا ان محاولات الانسان لا كتشاف هذا اللغز لن تأتي نتيجة غير نتيجة ناطح الصخرة فعليه ان يستشمر وجوده حتى الطفاف ويتناسى الازل والآخرة والغيبيات وليترك للعناية الإلهية تدبير الامور .

من خلال هذه الزاوية الفكرية الحاصة يمكننا ان نستشف نظرة الربحاني الى الله والدين والحقيقة والانسان والمجتمع .

اما الله فهو ، في عرف، ، جوهر ازلي سرمدي بنبعث منه جوهر الحياة التي تظهر في الارض انواعاً واشكالاً فتتدرج الى الانسان بما فيه من عقل وضمير وادراك تميزه عن الحيوان . انه عالم بكل شيء ، منزه عن الخطأ قادر على كل شيء ، عنده علم بالغيب ، وبيده زمام الحياة

١ من رسالة له الى الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء النجني ، بتاريخ . ٧
 أيار ١٩١٣ اثبتها محمد الحسين في « المراجعات الريحانية » ص . ٦

والاكوان ١ . وهو رب جمينع الاديان على السوَّاء ٢ .

واما الدين فلازم للانسان وواجب عليه ". حقيقته الكبرى واحدة لا تتغير رغم كثرة العقائد وتضاربها . الحقيقة تجمع والعقائد تفرق . الحقيقة إلهية ازلية والعقائد زمنية زائلة . ولا ضرورةلوسيط بين الانسان وربه ، والدين بجوهره ، هو الوعي الروحي بين الانسان والملكوث الاعظم مصدر الحب والحنان والعافية والجمال . وما المسيحية والاسلام والبوذية سوى اثواب مختلفة لعقيدة واحدة في الاساس " . فالطقوس والتقاليد التي تبعد الشقة فيا بينها ان هي الا انحرافات ينبغي نبذها " والتقاليد التي تبعد الشقة فيا بينها ان هي الا انحرافات ينبغي نبذها " لأنها تورث التعصب آ فة الآفات .

من هنا كانت الصلاة او التأمل الصلة الوحيدة التي تسمو بالنفس الحالدة نحو خالقها. انها تجسد اعجاب الانسان المحدود في ذلك الكيان الإلهي غير المحدود لا وسيلة روحية للتوصل الى شيء مادي ودنيوي مبتذل ٧. وهذه الحطوط الكبرى بجسدة في صلاة الامين المعروفة بالنجوى ٨:

١ وجوه شرقية وغربية ص ٧٣

۲ ریحانیات ج ۳ س ۳۲ ۳ ج۲ س ۱۵ ٤ ج ۲ س ۷۹ ه ج ۲ س ۱۵ ۲ ج ۲ س ۷۹ ۷ ج ۱ س ۸۵ ۸ ج۲ س ۲۱

رابانا الذي في السموات كن معي في الحياة وفي المبات . ان زدتني قوة فزدني يا رب تواضعاً ، وان زدتني علماً فزدني حلماً ، لا تمت في فضيلة لتحيي في اخرى ، انت يا رب خلقتني لاعيش حراً كالطيب ، خلقتني لأعيش اولا لنفسي وثانياً لأخي في الانسانية ولم تطلب من ابنائك ان يقدموا للعظيم منهم ضحية بشرية . انت منحتني عقلا لأفكر فاذا فكرت لا تلعني ، خذني بجلمك الواسع يا رب واذا صرخت من سويداء الفؤاد طالباً منك الرحمة لعبادك في ارضك فاستجب يا رب طلبي . بدد امامي غيوم الحيرة وارسل علي نور اليقين ، وان كنت قد اخطأت في اسئلتي ، ان كنت قد كفرت في صلاتي فاني تائب اليك . . . »

كان يحتقر المظاهرو الشكايات ويحارب الطقوس والشعائر و المعتقدات الآلية ويعتبرها باطلة لأن الصلاة الحقة هي مجرد خير ومحبة وعمل انساني. ومن هنا كانت منه نقمة لا تهاود على « المتظاهرين بالبراءة المصلين بفضل العادة المتعلقين بالقشور دون اللباب » .

اما نقمته على رجال الدين فلم تكن شاملة تبعاً لمبدأ مقرر ، بل نقمة على جماعات منهم وعلى افراد اساؤوا الى الرسالة في تصرفهم واساؤوا الى المسيح . فللفاضلين منهم حرمة عنده ولا اسمى « نعم انا اول من يعترف للاكايروس بالفضل متى كانوا من رجاله . وانا اول من يخضع لسلطتهم

متى استخدمت تلك السلطة لتعزيز العدل وتأييد الحق ورفع المظالم عن الفقراء والضعفاء وبث روح التهذيب والعلم في الامة. لست بمن يقارعون الاكليروس لاغراض دنيئة انما هي غيرة وطنية حملتني على مقاومة اولئك الذين يأكلون خبز النفاق ويزرعون في نفوس الناس بذور الشقاق،اولئك العاكفين على جمع المال اللابسين ثوب الكهنوت عن غير اهلية واستحقاق». اما الانسان ، في نظر الريحاني ، فليس آدمياً ساقطاً ، بل كائناً بدائياً مجسنه المجتمع دواماً بفضل التقدم فيتجاوز ذاته باستمرار حتى يبلغ المستوى الاعلى . فالامين وان آمن كروسو بصلاح في الانسان فطري ١، فانه لا يرى ان المجتمع يفسد الانسان ، بل على العكس يرى انه يطوره ويرقيه شرط ان يحيا الحياة الحقة الجديرة به ، تلك الحياة « التي تجمع بين محاسن فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين . هي التي يشارك صاحبها ابيقور في لذاته وسقراط في ادراكه وافلاطون في روحياته . هي التي تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح . هي التي تنتظم اول درجات سلم الحياة وآخرها من الحيوان .

ولا بدلنا ان نلاحظ ههنا اثر نظرية داروين في النشوء والارتقاء

۷ قومیات ۷ س ۲ ۲ ریحانیات ۱ س ه ه ۱

د اءترف الرمحاني نفسه باعتقاده بهذه النظرية ١ .

«من النبوت ، الى المدية الصوائية ، الى القوس والنشاب الى المنية ، الى الطيارة الى الرمح والسيف ، الى المدفع ، الى المدرعة الحربية ، الى الطيارة المدمرة . من الحيلة البسيطة في الاستيلاء تدرج الانسان الى الحيلة الدينية فالحيلة الملكية ، فالحيلة الاستعارية . من الفكرة التي فيها خيره فقط ارتقى الى الفكرة التي فيها خير اسرته ، فخير عشيرته ، فخير امته . ثم الى الفكرة التي فيها خير الانسان على الاطلاق » ٢ .

والانسان الامثل رجل المستقبل هو ذاك الذي تكتمل فيه جوانب الحياة كلها وتتساوى صحة وفها ورقياً فيتمكن من الجمع بين محاسن الجسد والعقل والروح بل هو ذاك الذي يعيش في الحاضر كما لو كائ الحاضر الابدية كلها وهو الذي لا يعول في امره على احد ولا مجترم في البشر إلا العلم والذكاء والصلاح ولا مجابي في سبيل الحق احداً . هو ذاك الذي يعيش لنفسه وللانسانية في وقت واحد ٣ .

۱ ریحانیات ۱ س ۱۰۵

٢ التطور والاصلاح ص ٢٧

۳ ریحانیات ۱ ص ۲ ه ۱

وكان لا بد لمثل هذا الرجل العظيم مدينة عظمى كجمهورية افلاطون المثلى ومدينة الفارابي الفاضلة . وقد تصور الريحاني هذه المدينة فردوساً آمناً يسير فيها الذئب والحمل متحابين متآخين ويرتاح فيها الناس من شرور المفتوين على الله وانبيائه القابضين على صولجان الحرافة المتوجين بتيجان الجهل والتعصب والطغيان ويسود فيها العلم والحرية والعدل والوفاء وتنتصر فيها قوى الروح والعقل على القوى المادية فيتحول عتاد الحرب معاول ومناجل وتشاد فيها الصروح والمعاهد والمتاحف ١٠

ان الانسان المتفوق ليحتاج الى مدينة متفوقة ايضاً تكون نموذجاً مصغراً للمجتمع الديمقراطي الصحيح المرتكز على مبادى الثورة الفرنسية التي تشبع منها الامين . والحرية التي يسعى اليها فعلية اكثر منها لفظية اذ ما ينفع السجين ان يبدل بثوبه المخطط ثوب الرجال الاحرار اذا ظل راسفاً في سلاسل الحديد مسجوناً في غرفته المظلمة او اذا ظل يشتغل مع بنيه الصغار تحت الارض محروماً من الهواء النقي والنور وجمال الفضاء . اي انه لا يؤمن بجرية لا تهياً لها الطاقة الكافية لتحققها ، لا تتاح لها العدالة الاجتاعية في مفهومها العميق .

۲ ریحانیات ۲ س ۳۰

ان المدينة المثلى التي يريدها الريحاني ترتكز على غير الطمع والاستثمار وعلى غير الشرائع التي « يسنها ارباب المـال ويطبقها سماسرة البورصة واصحاب المعامل وينشرها وزراء الحربية بالمدافع والمدرعات » . وانه لمتفائل بتحقيقها لأنه مؤمن بالانسان وبالاخاء البشري .

تلك هي اهم نظرات الربحاني الفلسفية وهي كما رأيت ابعد من ان تؤلف مجتأ منهجياً متسلسل المنطق ، مترابط المضمون . انها الحكمة الشرقية التي تأبى ان تتمذهب حتى ولو صبغت في قوالب دينامية مستحدثة ومن بوتقة الغرب .

 $V_{1,1}^{(i)}$ 

## مراجع هذا الكتاب الخاصة

#### كتب الريحاني المنشورة وغير المنشورة بالعربية وبالانكليزية

المطالعات الريحانية ... محمد حسين آل كاشف الغطاء

الربحاني في مصر – مصطفى الرافعي

الريحاني في العراق ــ رفائيل بطي

ذكرى الريحاني – مجموعة ما قيل فيه في حفلة سنة ١٩٤٥ التذكارية امين الريحاني – البرت الريحاني

- « « وديع ديب -- اطروحة
  - « سلسلة المناهل
- « « في حقيقته الديمقر اطبة الاميركية رئيف خوري

امين الريحاني - سامي الكيالي

- ر « مارون عبود
- ر ، حارث طه الراوي
- « « في ادب الرحلة ــ حكمة صباغ ــ اطروحة
  - « في اعلام الفكر العربي محمد علي موسى
    - و و سامي الكيالي
  - الرجل والاثر نجاح ابو علي اطروحة

ذكرى امين الريحاني ــ الشاعر القروي

فلسفة امين الربحاني ــ الدكتور كمال الحاج

الحقيقة اللبنانية ــ عمر فاخوري

الباب المرصود ــ عمر فاخوري

الغربال -- مخايل نعيمه

البيادر - مخايل نعيمه

اطواق الذهب ( بالاسبانية ) فاركاس فيلا

نحن الشعراء -- ( رد على انتم الشعراء )

شكل اشياء المستقبل ( بالانكليزية ١ . ج . ولس

#### مجلات وصحف عربية وانكليزية

#### متحف امين الريحاني

عام ١٩٥٤ شاد آل الريحاني في الفريكة متحفاً خاصاً لآثاره، يحتوي على كتبه ومكتبته وخصوصياته وصورالملوكورسائلهم وهداياهم وغيرها من التحف. ثم هناك هدايا رسوم مختلفة موقعة له من الفنانين: اوبوهارد، اس . ج . وولف ، البرت ستانلي ، ويـل سيمونز ، تروي كني، يوسف الحويك ، هلن بيل ، ماردو هارتلي ، مصطفى فروخ ، ا . بوت، مرغريت ث . هويت ، لورفور ، وغيرهم . وهذه الآثار منها المـائية والزيتية ومنها بقلم الرصاص والطبشور الاسود والملون والحير الصيني والحفر اليدوي والنحت .

## فهرستالكياب

توطئة 	٩
حياة الريحاني	14
الرمجاني والعرب	٧٧
القضية الفلسطينية	144
وصية الريحاني	111
آثار الامين	1 & A
اسلوب الريحاني	10.
تحلیل آثارہ	۱۷۳
فيلسوف الفريكة	178
مراجع البحث	۲٠٦

الثمن: ۳۰۰ ق.ل.